القـراءة الخامسـة

كتـاب الضيـاء
(منهجـاً ، وأسـلوباً ، ولغـة)

د. عبدالحفيـظ محمـد حسـن
كلية الآداب – جامعة السلطان قابوس

مقـــدمة :

كتاب «الضياء» موسوعة في الفقـة، في أربعة وعشرين جزءاً، قامت وزارة التراث القومي والثقافـة بسلطنة عُمان في اطـار حرصهـا على احياء التراث العُماني بطبع أحـد عشر جزءا منها.

ومؤلف الكتـاب هو أبـوالمنذر سلمـة بن مسلم بن إبراهيم الأزدي العـوتبي الصحاري، وهو منسوب إلى «عـوتب» من أعمال صحار. وقد اختلف الباحثـون حول الفترة التى عاش فيها، فليس هنـاك خبر يقين عن تاريخ مولـده أو وفاته، ويرى معظم العلماء أنـه عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري والعقود الأولى من القرن الخامس[1] ويرى الشيخ أحمد بن سعود السيابي أنه عاش في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري معتمداً على أنه في كتـابه «الأنسـاب» نقل عن كتاب «جمهرة نسب العـرب» لابن حزم الأنـدلسي المتوفى سنة ٤٥٦هـ[2].

اشتمل البحث على ثلاثة فصول :

تنـــاول الفصل الأول المنهج الذى اتبعـه العوتبي في تأليف كتابه، وطـريقته في تقسيم فصوله وأبوابه.

وتناول الفصـل الثاني أسلوبه في التأليف، وطريقته في معـالجة الموضوعات والقضايا التي يطرقها والمسائل التي يتناولها.

أما الفصل الثالث فتناول لغة الكتاب بالتحليل، فأوضح خصائصها ومميزاتها.

وإنى لاعلم أن الموضـوع متشعب وشـاق ويحتاج إلى جهـد أكبر ومجال أوسع، ولكني أرجو أن أوفق في إلقاء بعض الضوء على منهج الكتاب ولغته وأسلوبه.

---

(١) انظـر في ذلـك الشيخ سيف بن حمود البطـاشي، إتحاف الأعيـان في تـاريخ بعـــض علمـــاء عُمـان، الجزء الأول ص٢٧٣-٢٧٥، و د. عصـام بن علي الـرواس، نظرة على المصادر التاريخيـة العُمانية.

(٢) الشيخ أحمد بن سعود السيابي، رسالة بخطه.

أولاً : المنهـــج

قسم العوتبي كتابه «الضياء» تقسيماً منهجياً، فبدأ بالعقيدة وأصولها، ثم العبادات، ثم المعاملات، ورتب الموضوعات داخل كل جزء ترتيباً متسلسلاً في أبواب وفصول يسلم بعضها إلى بعض، واتسم منهجه بعدة سمات، أهمها :-

١- البدء بالأصول ثم الانتقال إلى الفروع :

فقد بدأ بالأساسيات التي تنبنى عليها الأحكام، والمقدمات التي تترتب علها النتائج، والأصول التي يقوم عليها الدين فجعل **الجزء الأول** في العلم والمعرفة والتوحيد، وجاء في ثلاثة وعشرين بابا، **أولها في «بسم الله الرحمن الرحيم»** وفضلها وما ورد في شأنها(١)، فكانت بداية منهجية موفقة.

وبعد ذلك **خص العلم والمعرفة** والحكمة بثمانية عشر بابا، لأنها أصل ينبنى عليه التوحيد.. ولذا ناسب أن يفرد له هذه الأبواب العديدة، وهي على الترتيب كما يلي :

في العلم، في الحكمة، في مدح العلم وتفضيله، في ذم الجهل وتضليله وكثرة أهل جيله، وفيه عرف الجهل بأنه نقيض العلم، وتطرق للحديث عن الحمق، فمهد بذلك الباب للذي يليه، وهو **«في العقل»**، حيث أوضح قيمته وفضله، ثم جاء **الباب السابع** في تفضيل العلماء وإعظامهم وتبجيلهم وإكرامهم. **والباب الثامن**(٢) في مراتب العلماء وأحوالهم، وما جاء في أقوالهم وأفعالهم ومكانتهم وفضلهم عند الله، ودورهم في الدنيا، وربط بين العلم والهدى، والعلم والعمل والتقى، فكان ذلك بمثابة تمهيد **للباب العاشر** وهو في الحث على العلم وتعليمه.

وبعد أن اطمأن الشيخ إلى أن قارئه قد وثق في صدق مايقول، واقتنع بالعلم قيمة عظيمة، وتحمس له، **انتقل إلى الحديث عن العملية التعليمية**، بأطرافها الثلاثة: **المعلم والمتعلم والوسيلة، فعقد للمعلم بابين لأهميته، الأول** «في آداب العلماء» في ذاتهم، ربط فيه بين الأدب والعلم، وذكر فيه أن من آداب العلماء أن يؤدبوا أقوالهم ويهذبوا أفعالهم، **والباب الآخر:** ما يجب على العلماء في التعليم من مجانبة العجب وعدم كتمان العلم، وتوسم المتعلم بفراسته ليعلم بها استحقاق حالته، ومبلغ طاقته، فيعطيه ما يحتمله، ولايزيده فيذهبه.

---

(١) انظر : سلمة بن مسلم العوتبي الصحاري، الضياء، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، الطبعة الأولى ١٤١١هـ-١٩٩١م، الجزء الأول، ص٢٧ وما بعدها.

(٢) وردت الابواب في الكتاب دون أرقام، وهذه الأرقام من عمل الباحث.

وبعد أن أوضح ما يجب على المعلم والمتعلم، كلا على حدة، انتقل للحديث عن العلاقة التى تربطهما وهى العملية التعليمية فنظمها، وأوضح وسائلها المختلفة، وهي:

السؤال والدرس والمذاكرة والاقتداء، فأفرد لكل واحدة منها بابا، **فباب في أدب المسؤول والسائل** والفتيا والجواب عن المسائل، أوضح فيه وجوه السؤال وأدواته، وما ينبغى للعالم، من عدم الضجر من إعادة السائل لسؤاله، ومن لين للسائل، وعدم الكذب، وأن يجيب وهو جالس غير مشغول ولاحاقن، وأن يشاور في الجواب من يحضره ممن يصلح لذلك، وغير ذلك من الواجبات التى تضمن أن يأتى الجواب على حقه(١).

ولايغفل العوتبي عن أن يوضح -على الجانب الآخر- ما يجب على السائل. وبعد ذلك عقد بابا في صفة المستحق للسؤال عن الحلال والحرام، لئلا يسأل أحد غير أهل العلم، **ثم عقد بابا في الدرس والمذاكرة، وبابا في التقليد**، أوضح فيه مايجوز من التقليد وما لايجوز، **ثم عقد بابا في وجوب التكليف وأقسامه**، (اعتقاد وفعل وكف) والتبليغ كمهمة أساسية للعلماء (بلوغ الدعوة وقيام الحجة).

تناول العوتبي في أبوابه السابقة العملية التعليمية من جميع جوانبها، ففصل القول فيها، ولمس أدق المسائل بطريقة منهجية منظمة، مستعيناً في ذلك بخبرته، مستشهداً بالمأثور من كلام العرب شعراً ونثراً وبالقرآن والحديث، فظهر كعالم من علماء التربية يتبع المناهج الحديثة والطرق التربوية الصحيحة في التدريس.

وبعد هذه المقدمات والأسس جاء **الباب العشرون** في التوحيد نتيجة وثمرة للأبواب السابقة في العلم والمعرفة.

عرف العوتبي التوحيد وبين نقيضه، فتحدث عن الإلحاد، وهو الانحراف عن الشيء والعدول عنه إلى ناحية، والذين يلحدون في أسمائه، أي يميلون عن أحسنها إلى أن يقولوا له شريك وله ولد(٢).

والملاحظ أنه أفرد هذا الباب فلم يقسمه إلى فصول أو مسائل كما هو، في سائر الأبواب، كأنما أراد أن يتناسب ذلك مع ما يتحدث عنه من التوحيد.

وأتبع العوتبي هذا الباب ثلاثة أبواب تتعلق بالتوحيد، فالباب الحادي والعشرون في الأسماء، أوضح فيه أن الاسم مأخوذ من السمو والرفعة، وتحدث عن «بسم الله الرحمن الرحيم» مفتاح كل كلام. وتطرق إلى قضية لغوية ولكنها تخدم الموضوع الذى

---

(١) انظر : الضياء ج١ ص١٧٤-٢٠١.
(٢) انظر الضياء ج١ ص٢٠٢-٢١٢.
(٣) انظر الضياء ج١ ص٢٩٣.

يتناولـه، فتحدث عن علة حذف الألف منهـا، وعن البدء بالباء وهى حـرف جر، وعلل ذلك بانها متعلقة بفعل محذوف هو «أبتدىء» بسم الله الرحمن الرحيم(١).

ثم أورد الآراء المختلفة في اسم الله الأعظم(٢)، وقولنا في الدعاء «يارب» بإسقاط الألف واللام، ويقـال كذلك «رب» واستدل على ذلك بقـوله تعـالى على لسان موسى عليـه السلام ﴿رب أرنى أنظر اليك﴾(٣).

والبـاب الثـاني والعشرون «في أسماء الـذات وأسماء الصفـات»، والبـاب الثـالث والعشرون «في التوحيـد»، أوضح فيه أصل التوحيد ودليل الـوحدانية، فكل ما في العالم دليل على الواحد الذي لايشبهه شيء، وبين أن «أصل التوحيد ثلاث خصال: الواحد، القدير، الرحيم(٤).

وجاء الجزء الثاني من كتاب الضيـاء مرتبطا بالجزء الأول، فقـد ختم الجزء الأول بأصل التـوحيد ودليل الـوحدانيـة، وفي الجزء الثـاني تناول بعض القضـايا المتعلقـة بتلك القضية الكبرى، ففصل الكلام فى التوحيد وحقيقته وما يتعلق به، فجاء هذا الجزء في خمسة عشر بابا.

الباب الأول: ما يجوز من الصفات حقيقة ومجازا، قسمه إلى أربعة عشر فصلا، تناول فيه كثيراً من المسائل التى تتعلق بالعقيدة وتصحيح ما انحرف منها.

الباب الثاني: جاء مقابلا للباب الأول فأوضح ما لايجوز من الصفات.

البـاب الثـالث: في القول في آيات تتعلق بـالموضوع الذى يعالجه، مثل قـوله عز وجل «يخادعون الله وهو خادعهم»، فأوضح أن ذلك توسع ومجاز في لغة العرب.

وناقش كثيراً من المسائل ورد عليها في أسلوب حـواري، يقول مثلا: فإن قال قائل كذا.. قيل كذا، وإن قال... قيل...

الباب الرابع: في القول في أحاديث لرسول الله ﷺ متعلقة بذلك.

الباب الخامس: في التوحيد قولا، وهو قول «لا إله إلا الله».

وبعد الحديث عن حقيقة التـوحيد فيما يتصل بالوحـد سبحانه وتعالى، والتـوحيد قولا، ناسب أن يكـون الحديث عن نتيجة عقيـدة التوحيد فيما يتصل بجـانب الموحد متخـذا مما أرساه في الأبواب السابقة منطلقـا في معالجة مختلف القضايا، **فجاء البـاب السادس** في

---

(١) الضياء : ج١ ص٢٩٨.
(٢) انظر المرجع السابق ج١ ص٣٠٥.
(٣) : الأعراف / ١٤٣.
(٤) الضياء ج١ ص٣٧٣.

القضاء والقدر، رد فيه على القدرية والمعتزلة في مسائل عديدة. **والباب السابع** في الرزق وطلب المعيشة، **والباب الثامن** في القرآن كتاب الله عز وجل، وأنه لايسمى بذلك غيره من سائر الكتب. ويدعو إلى التمسك به واللجوء إليه «عليكم بالقرآن». ويتناول عدة مسائل مثل إعجازه ونزوله وعدد سوره، والمكى والمدنى.

والباب التاسع فى أحكام القرآن، والنسخ، ومايقع فيه النسخ وما لايقع. **والباب العاشر** في المحكم والمتشابه، **والباب الحادى عشر** في الأوامر والمناهى.

ثم جاء الباب الثاني عشر في الأصل الثاني من أصول الفقه، في الإخبار عن النبى ﷺ، منطلقا مما روى عنه ﷺ أنه قال: «رحم الله امرءا سمع منا صفة فأداها كما سمعها». وفي خبر: «رحم الله امرأ سمع مقالتى فأداها كما سمعها، فرب حامل فقة إلى من لافقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»(١). وفي ذلك دعوة إلى الصدق فى الرواية والتبليغ وعدم التصرف فيها بشكل من الأشكال.

وختم هذا الجزء ببابين: أحدهما: مالا يسع جهله، والآخر مايسع جهله. أوضح فيه أنه «يسع جهل أداء الفرائض مالم يبتل بالعمل بها، فإذا وجب العمل وحضر وقتها لم يسعه ذلك(٢).

وإذا كان الفقة نتيجة للعلم والمعرفة، فهو أساس فقه العبادات والمعاملات، فبعد أن حدث عن العلم مدخلا والتوحيد نتيجة له وقول «لا إله إلا الله» للدخول فى الدين، **جاء حديثه في أصول الدين في الجزء الثالث، فجعل الباب الأول منه** فى شىء من الأصول، فعرفها وأوضح الفرق بينها وبين الفروع، وقيمتها وضرورة العلم بها.

وتحدث بعد ذلك عن الاكتساب في الفعل، والعرض العلة، والإجماع، والأصل المجمل والمفصل.

وجاء الباب الثاني في القياس، فعرفه وأورد حجة صحته وبطلان القول بنفيه، عن طريق العقل والنقل. **وجعل الباب الثالث** في الدين، فعرفه بادئا بأقوال العرب نثرا وشعراً، وذلك لأنه يخاطب العقل بداية، ثم عرفه بعد ذلك من خلال القرآن والحديث.

٢- الانتقال من العام إلى الخاص:

ففي **الجزء الثالث** جعل الباب الثالث في الدين، ثم جعل الباب الرابع في «الإيمان والإسلام»، ثم ارتقى للحديث عن أهل التقى في الباب الخامس، وتطرق إلى مايجب للمسلم على المسلم في الباب السادس، ثم جعل الباب السابع في الصحبة والمعاشرة، والذى يليه في

---

(١) تذكرة الموضوعات لابن القيسراني، المطبعة السلفية ص٤٦٢.
(٢) الضياء ، ج٢ ص ٢٧٩.

الولايـة والبراءة، مورداً بعض المسائل في ذلـك، ومسائل غيرها في الأطفـال: أطفال المؤمنين وأطفال الكافرين.

٣- المزاوجة بين المعاني والموضوعات :

بعـد أن انتهى العوتبـي إلى دقائق الأمـور وخصـائصها فيما يتعلق بـالـدين، انتقل إلى الحديث عن **الجانب المقابل**، في تدرج وتسلسل، بادئا بباب «في الشرك والمشرك»، وآخر «في الكفر والكافر»، ثم «في النفاق والمنافق، و«في الفسق والفاسق»، و«في الظلم»، و«في الفجور»، إلى أن ينتهى إلى الإثم والوزر.

والعوتبـي في ذلك متأثر بأسلـوب القرآن الكريـم في المزاوجة بين الأمـــر والنهي، والترغيب والترهيب، والوعد والـوعيد، والحض والزجر، وذكـر الجنة والنار، وغير ذلك من المزاوجات، فإذا عقد بابا في الجزء الخاص بالصـلاة -لما يجوز للمصلي فعله، عقد بابا تاليا لما لا يجوز للمصلي فعلـه، وبـاب مـا ينقض الصـلاة يقـابلـه بـاب مـالا ينقض الصـلاة، ويتوسطهما باب «ما يكره للمصلي فعله ولاينقض الصلاة». وباب ما تجوز الصلاة به من الثياب وغيرها، يقابله باب مالا تجوز به الصلاة من الثياب وغيرها. وباب مايجوز السجود عليه يقابله باب مالا يجوز السجود عليه ويكره.

ويقابل العوتبي بين المتنـاقضات، ويوازن بين المعاني، فيعقد البـاب السادس عشر «في الهدى والضلال». وناسب أن يأتي الحديث بعد ذلك فيمن جمع بين الحالين من الناس، فكـان الباب السـابع عشر «في المرتد»، ثم جـاء بعـد ذلك باب «في أهل الـذمة»، وتطـرق إلى مـايتعلـق بهم، فجعل البـاب التـاسـع عشر في أطعمـة أهل الكتـاب وغيرهم من المشركين، وذبائحهم ورطوباتهم وأحكام ذلك منهم. ثم جاء الباب العشرون في الجزية وأحكامها.

وجاء البـاب الحادي والعشرون في شيء من اختلاف الفرق والمذاهب والأقـاويل، والباب الثاني والعشرون في اختلاف الناس في المقالات، وقد أورد مواطن متعددة مما اختلف الناس فيه، وأورد المقـالات المختلفة في كل مـوطن، وتحدث عن الفرق وألقـابها، ثم رد على جماعة المغاليين من تلك الفرق والرافضة خاصة(١).

٤- الإجمال بعد التفصيل :

وفيما يمكن أن يسمى عوداً على بـدء أو إجمالاً بعد تفصيل ختم العـوتبي الجزء الثالث بـالحديث عن **المعرفة والتـوحيد**، فعقـد لهما الفصلين الأخيرين من موسـوعته، محتفظاً بنفـس الترتيب بينهما، فالفصل الأول منهما في العلم وطلبـه ومعرفـة الله سبحانـه ونفي

---

(١) الضياء ج٣ ص١٨٤.

الأشباه عنه، ومعرفة الفرق بين صفاته الذاتية وصفاته الفعلية، كأول مايجب على العبد عند أول أحوال التكليف(١) وكأنه أراد أن يذكر بالأصل الأول الذى ينبنى عليه الدين، وهو ما عقد له ثمانية عشر باباً في الجزء الأول.

والفصل الآخر في التوحيد، ذلك الهدف الأسمى الذى تحدث عنه في ختام الجزء الأول وبدء الجزء الثاني، وها هو يختم به الجزء الثالث في صورة مقابلة لصورة تفرق المسلمين واختلافهم في المقالات. وبدأ هذا الفصل بقوله: «اعلموا وفقكم الله أن الدين واحد وإن اختلفت فيه المقالات، وكثرت فيه الجهالات، ووقع بين الأمم الافتراق، وواقع الشيطان بينهم في الشقاق»(٢).

وهو في ذلك يدعو الأمة إلى التوحيد وترك التفرق والانتباه إلى مكايد الشيطان، ومبعث ذلك أن الدين واحد، والحق أيضاً واحد، مستشهداً بآيات القرآن الكريم، وأحاديث النبي ﷺ قال -عز وجل- ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾(٣) وقال -تعالى-: ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾(٤) وقال تعالى: ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون﴾(٥).

الجزء الرابع: في الذنوب والكبائر والحدود، وهو جزء كبير نسبياً، فقد جاء في تسعة وأربعين باباً، كما يلي:

الباب الأول : في الذنوب والكبائر والتوبة منها. والباب الثانى : في المرتد. والباب الثالث : في الزنا، وهو من أكبر الكبائر وأخطرها على الدين والمجتمع، ولذلك جاءت الأبواب الثمانية التالية لهذا الباب متعلقة به، وجاءت متسلسلة في تدرج منطقي، كما يلي: في الملاعنة، في القذف، في الإحصان، في الحدود، في العفو عن الجنايات، فيما لاحد فيه، في الأدب والضرب والتعذير، في إقامة الحدود وصفتها ومعرفتها، في الحدود.

وجاءت الأبواب **بعد ذلك في الأشربة، وفي السكران وأحكامه، وفي المجنون والأبله، وفي الأعجم والأبكم والأخرس، وفي الأعمى، وفي الغائب.**

وقد ورد في الباب الأخير عدة مسائل دون تسميتها مسألة، ولعل ذلك لأنها حالات فردية وليست مسائل عامة.

وتبعت هذا الباب «**في الغائب**» عدة أبواب تتعلق به وتترتب عليه، **فالباب التاسع عشر** في اليتيم، فاليتيم طفل غاب أبوه ولكن بموت. ثم تلت ذلك أبواب تتعلق باليتيم، **فباب في مال اليتيم، وباب في الوصاية والوكالة والاحتساب والقرض لليتيم، وباب فيما**

---

(١) الضياء ج ٣ ص٢٠٩.
(٢) الضياء ، ج٣ ص٢١٠.
(٣) آل عمران / ١٩.
(٤) الحج / ٧٨.
(٥) يونس / ٣٢.

يجوز للوصى والوكيل والمحتسب والحاكم في مال اليتيم، ومالا يجوز. وختم هذه الأبواب بباب في الرشد وبلوغ اليتيم ودفع ماله إليه.

انتقل العوتبي بعد ذلك إلى مشكلة أخرى تتعلق بالأطفال، أو نوع آخر من الأطفال الذين لهم مشاكل وهو اللقيط. ثم جاء باب في المملوك وأحكامه، وهو باب طويل نسبياً، فقد بلغ حوالي خمسين صفحة(١).

وبعد أن عالج العوتبي قضايا الأسرة والعلاقات الداخلية بينها انتقل إلى العلاقات الخارجية فجاءت الأبواب كما يلي: **في الجار، وفي صلة الأرحام، وفي القرابة وصلتهم وهجرهم.**

وعاد مرة ثانية لما يتصل بالأسرة فعقد **بابا في الوالدين** وبرهما، **وآخر فيما يستحق الولد من مال الوالد**، ويتناول الصورة المقابلة لها فيأتى **الباب الحادي والثلاثين فيمن عق والديه، والباب الثاني والثلاثين فيما يجب للوالد على ولده وللمولى على عبده**، وأوضح في مقابل ذلك مايجب للولد على والده وللعبد على سيده، وما يجب من الحقوق لبعضهم على بعض.

وجعل الباب الثالث والثلاثين في شيء من النهى وما جاء فيه اللعن. والباب الرابع والثلاثين في الكذب وما جاء فيه، ولم يدخله في باب النهي لأن منه ما يباح، ولذلك جعله بابا مستقلا، وجاء الباب الذى يليه مقابلا له، فقد جعله «في الصدق»، ثم توالت الأبواب بعد ذلك في الأخلاق والصفات، في الوفاء، وفي كتمان السر، وفي الحياء، وفي الوعد والعهد، وفي المشورة. وبعد ذلك جاء الباب الحادي والأربعون في طاعة الله عز وجل، ومعصيته، والثواب والعقاب.

وجاء الباب الثاني والأربعون في ترك العجب وكراهة المدحة والتواضع لله تعالى والخضوع له. والباب الثالث والأربعون فيما يروى من قول الله عز وجل، من غرائب الحديث من قول الله عز وجل. والباب الرابع والأربعون فيما روى من كلام النبي ﷺ الذى لم يسبقه اليه أحد، وبعض الأقوال التى تشبه الأمثال. الباب الخامس والأربعون في الأيام والليالي والأهلة. والباب السادس والأربعون في الحمد والشكر. والباب السابع والأربعون فيما جاء في السؤال. والباب الثامن والأربعون فيما جاء في الفقر وأهله. والباب التاسع والأربعون في الورع والعفة.

---

(١) الضياء ، ج٤ ص٣٠٣ – ٣٥٠.

٥- البدء بالعقيدة ثم الانتقال إلى العبادات :

بعد هذه الأصول من المعرفة والتوحيد انتقل إلى العبادات فجعل الجزء الخامس في الصلاة ومايتعلق بها، وجاء فى واحد وثلاثين بابا بدأها بباب القبلة والسترة ومايتعلق بهما ونسخ بيت المقدس، ثم جاءت الأبواب متتابعة كما يلي: فى المساجد وقيمتها ومكانتها عند المسلمين، وما يجوز فعله وما لايجوز، وفي الأذان والمؤذنين والإقامة، وفي الصلاة ووجوبها ومستحبها، وفي معرفة الصلوات وأوقاتها، وفى الفرائض التى لاتتم الصلاة إلا بها ولاتنبنى إلا عليها، وبها يصلح عملها، وأوضح أنها سبع خصال[1] : النية والطهارة والسترة الطاهرة، وطهارة الموضع الذى يستقر المصلي عليه، والعلم بالوقت، والتوجه إلى الكعبة، والقيام منتصبا عند فعل الصلاة، وأورد حجج وجوب كل خصلة منها من القرآن والحديث. وفي الفرائض من الصلوات والسنن، وفي صلاة الوتر، وفي صفة الصلوات عند القيام إليها، والإقامة، والتوجيه، وفي تكبيرة الإحرام، والاستعاذة، والقراءة في الصلاة، وفي الركوع، وتكبيرة الركوع، والسجود وتسبيحهما، وفي السجود، وما يجوز السجود عليه، وما لايجوز، والتحيات والتسليم، وفي التسبيح وفي الدعاء وما يجوز منه وما لايجوز، وفي الصلاة على النبى ﷺ، وفي صلاة المرأة والخنثى، وما يجوز للمصلى فعله، وما لايجوز، وما ينقض الصلاة، وما يكره للمصلى فعله ولا ينقض عليه، وما لاينقض الصلاة وما لايقطعها، وما تجوز الصلاة به من الثياب وما لايجوز، وعالج في هذا الباب اختلاف صلاة المصلى في صلاته لاختلاف أحواله وأوقاته، مثل صلاة المرض والخوف والحرب، وصلاة الحاجات مثل الكسوف والزلزلة والاستسقاء، وصلاة السنن والنافلة والتطوع مثل صلاة الضحى، وقيام الليل، وصلاة التراويح. والجزء السادس في الزكاة وإخراجها، والصيام وما جاء فيه، والجزء السابع في الحج وأركانه.

٦- بعد الفرائض جاءت المعاملات والعلاقات بين الناس:

وهى على مستويات متعددة مختلفة، فقد تدرج فيها من الخاص إلى العام، فبدأ بأقرب العلاقات وأكثرها خصوصية، وهى العلاقات في مجال الأسرة الصغيرة، ثم الأسرة الأكبر، ثم الجوار، ثم المجتمع، ثم الدولة والحكم بين الناس، فجاء الجزء الثامن في العتق والرضاع والنكاح وأحكامها، والجزء التاسع في الطلاق، والعاشر في الخيار، والخلع، والإيلاء، والظهار، ورد المطلقة، والعدة، والحضانة، والحيض وأحكامه. والجزء الحادى عشر في القضاء (الحكم بين الناس).

وهكذا نجد أن كل باب يسلم إلى الباب الذى يليه، فيمهد السابق للاحق، أو يفصل اللاحق ما أجمل فى السابق، أو يخصص ما عم.

---

(١) الضياء ج٥ ص١٠٩

٧- الاستدلال العقلي والنقلي :

استعان العوتبي بالعقل والنقل على صحة ما يقول، فاستخدم القياس المنطقي الذي يعتمد على العقل، كما استخدم الأدلة النقلية على حد سواء، ومن أمثلة ذلك استدلاله على بطلان قول من قال (المحرم منه «أى الخمر» الذي أسكر دون مالا يسكر، وإن الشربة التي تسكر هي الحرام)(١). يقول العوتبي فى إثبات بطلان ذلك : إن كان الاختلاف بين الناس في الخبر على ضربين فسد أحدهما وصح الآخر، والنظر يوجب أن الخبر، إذا كان صحيحاً قول من قال إن الشربة التى حدث معها السكر هى المحرمة دون غيرها، أن ذلك إغفال ممن قال به، إذ محال أن يحرم النبي ﷺ الشيء بعد فعل الفاعل له، ومحال تحريم الشيء بعد فعل الفاعل له، وإنما حرم شرب المسكر قبل شربه، وغير جائز أن يحرم شيئا ويكون ذلك الشيء المحرم غير معلوم، إذ لو كان ذلك كذلك لما وجد العباد السبيل إلى الطاعة لأن المتطوع متى قصد إلى فعل ما أمر بفعله، أو ترك ما أمر بتركه وهو عالم به، فغير جائز أن يحرم الله شيئا ولايدل عليه بدليل أمر هو به، فلما استحل ما ذكرنا عندنا وعند من اختار غير اختيارنا علمنا أن الله حرم قليل السكر وكثيره على لسان نبيه ﷺ، وفى صحة ما اخترنا دليل على إبطال من قال إن المحرم الشربة التى تسكر. والله أعلم(٢).

يبرز العوتبى هنا كعالم من علماء الكلام في استدلاله العقلي عن طريق الفروض الجدلية ليصل إلى صحة ما اختاره في النهاية.

ويورد بعد ذلك الأدلة النقلية على تحريم الخمر من الحديث والأخبار. وفي هذا المجال ومثله يحرص على ذكر سند الحديث ليؤكد صحته ويقطع اللجج، يقول: «والأخبار المتواترة عن النبي ﷺ -مع اختلاف الرواة لها، وتفاوت ما بينهم، واختلاف معانيهم- أنه حرم المسكر، وقال «كل مسكر حرام». وقد قيل ملء الكف حرام، وقال : القطرة حرام.

وعن جابر، يرفع عن النبى ﷺ أنه قال: «ما أسكر كثيره فقليله حرام».

وروي عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال : «ما أسكر الفرق منه فملء الكف حرام، والقطرة حرام والجرعة منه حرام»(٣) وهذا الحديث وغيره والأخبار والروايات كلها تفسد قول من أجاز شرب النبيذ المنهي عنه الذي من شرب منه سكر، وإنما أجازت الأحاديث والروايات الشراب من غير الخمر إذا لم يكن مسكرا، مما لم يكن في الأصل مسكرا، أو لم يكن خمرا، ولا من وعائه.

---

(١) الضياء ج٤ ص١٨٨.
(٢) الضياء ج٤ ص١٨٩.
(٣) ميزان الاعتدال ١٠٤٠٨.

وقد روي أن ابن عمر بن الخطاب وعلي بن أبى طالب ومعاذ بن جبل، وأبا موسى الأشعرى، وأبا عبيده بن الجراح أنهم كانوا يحرمون شرب الطلاء على الوصف الذى ذكرناه من الطبخ.

وروي عن النبى ﷺ من طريق جابر بن عبدالله أنه نهى أن ينبذ التمر والزبيب جميعاً، ولا الرطب والبسر جميعاً، وأن ينبذ كل واحد على حدة.

ومن طريق أنس عنه ﷺ أنه «نهى عن نبيذ التمر والبسر جميعاً»(١)

ومن طريق عمر أنه «نهى أن يخلط البلح قبل البسر والتمر»(٢)

ومن طريق ابن عباس أنه «نهى أن يخلط البسر والتمر جميعاً».

وفي الحديث عن القياس وصحته يضرب أمثله للقياس الغلط فيقول : «ومن شبه الزكاة بالصلاة فغلط لأن الصلاة عمل على البدن ليس لأحد فيه حق، والزكاة دين تقوم في ماله يخرجها هو ويخرجها غيره بأمره، ويخرجها الإمام إلى أهلها إذا غاب عنها أو منعها بغير رأيه لأن الإمام حاكم يحكم بماثبت عنده من حق على الغائب والحاضر والممتنع. ثم يقول تأدباً وتواضعاً «والله أعلم».

ويتابع قائلاً: «وليس شهادة النكاح كشهادة الحقوق لأن الحقوق لايحكم بها الحاكم إذا عدل إلا بالعدول من البينة لأن الحاكم يطلب أن يكون عدلاً على الحقوق والأحكام، فشهوده أيضاً عدول مثله، وليس كذلك فى النكاح، لأن النكاح لايطلب العدول فيه من الأولياء والمتزوجين جاز أن يكون البينة لهم كذلك والله أعلم(٣).

٨- ابتعد العوتبي عن نقاط الخلاف :

فإن كان الرأي مخالفا أورده بالبناء للمجهول لمجرد العلم به فيقول مثلا، ويرى بعضهم، أو قال بعضهم، أو وقال من قال، أو روى بعضهم، أو قيل، أو روي،.... إلى غير ذلك من الأفعال المبنية للمجهول أو التى لم يذكر فاعلها، مكتفيا بكلمة بعضهم. ولم يغير أو يبدل في مقالاتهم، ويقول في مقدمته لكتابه (الضياء) موضحاً منهجه في ذلك: «وقد ذكرت شيئاً من أقاويل قومنا الموافقة لنا، والمخالفة لأقاويلنا في مواضيعها من الكتاب، إذ العلم بذلك خير من الجهل به»(٤).

---

(١) مسند ابى حنيفه ١٥٣.
(٢) مسند ابى حنيفه ١٥٣.
(٣) الضياء ج٣ ص٢٢.
(٤) الضياء ج١ المقدمة ص١٨
(٥) المرجع السابق ص٢٠.

ومن الأصول التي اعتمد عليها منهجه في الضياء أن «السكوت خير من الكلام العاري من البرهان، والخرس أفضل من قول بغير بيان»(٥).

ومن هذا المنطلق لم يهتم بالرد فيما اختلفت فيه الأقوال بحسب التأول، وإنما اكتفى بتأكيد رأيه بالدليل والحجة من نقل وعقل، أما عندما يكون الاختلاف في مسألة تمس العقيدة فإنه يرد بقوة وعنف، ومن ذلك رده على جماعة غالية الشيعة والرافضة.

ثانيـاً : الأســلوب

كلمـة «الأسلــوب» في العربيـة مجاز مأخوذ من معنـى الطريق الممتد، أو السطـر من النخيل، وكل طريق ممتد فهو أسلوب، **والأسلوب** الطريق والوجه والمذهب، يقال أنتم في أسلوب سوء، ويجمع على أساليب، والأسلوب الفن، يقـال: أخذ فلان في أساليب من القول، أى أفانين منه(١).

وتناول الـزمخشرى مادة «سلب» فقال: «سلبه ثـوبه، وهو سليب، وأخذ سلب القتيل وأسـلاب القتلى، ولبست الثكلى السـلاب، وهـو الحداد، وتسلبت وسلبت على ميتهـا فهي مسلب، والإحداد على الـزوج والتسليب عام. وسلكت أسلوب فـلان: طريقته، وكـلامه على أساليـب حسنه. ومن مستلب العقل، وشجـرة سليب: أخذ ورقهـا وثمرها، وشجـر سلب. وناقة سلوب: أخذ ولدها، ونـوق سلائب. ويقال للمتكبر: أنفه في أسلوب، إذا لم يلتفت يمنة ولايسرة(٢).

وبالنظر إلى التحديد اللغوي لكلمة **«الأسلوب»** يمكن تبين أمرين: **الأول:** البعد المادى الذى يمكن أن نلمسه في تحديـد مفهوم الكلمة من حيث ارتبطت في مدلـولها بمعنى الطريق الممتد، أو السطر من النخيل، ومن حيث ارتبـاطها أحياناً بالنواحي الشكليـة كعدم الالتفات يمنـة أو يسرة. **الثـاني:** البعد الفني الذي يتمثل فى ربطها بأسـاليب القول وأفانينه، كما نقول: سلكت أسلوب فلان: طريقته. وكـلامه على أساليب حسنة. ولعل المعنى الاصطلاحى لم يبعد كثيراً عن هذا المفهوم اللغوي إن لم يطابقه(٣).

والحديث عن «الأسلوب» يبدأ بأرسطو وكتابه «فن الخطابة»، حيث أفرد المقالة الثالثة والأخيرة من هذا الكتـاب للأسلـوب، وفى هذه المقالـة استخدم الأسلـوب بمعنى اللغة التي يستعملها المتكلم إذ يقول في بدايتها: «إن المرء يراعـي فى قوله ثلاثة أشياء: **أولها وسـائل الإقناع، وثانيها الأسلوب أو اللغة التى يستعملهـا، وثالثها ترتيب أجزاء القول»**(٤) ولعله كـان أكثر وضـوحاً في تحديـد معنى الأسلوب حين أشـار فى موضـع آخـر إلى أهمية الطريقة التى يعبر بها المرء عما يريد، فـلا يكفي أن يعرف المرء ما ينبغي أن يقال، بل يجب أن يقـوله كما ينبغي، فيستخـدم في أسلـوبه الـوسائل الكفيلـة بخلق التأثير الـذي يريـده

(١) انظر : مادة (سلب) لسان العرب – ابن منظور، دار المعارف : ٢٠٥٩.
(٢) أساس البلاغة – كتاب الشعب ١٩٦٠ : ٤٥٢.
(٣) د. محمد عبدالمطلب ، البلاغة والأسلوبية ، الهيئة المصرية ١٩٨٤م ص١٣.
(٤) د. محمد غنيمى هلال، النقد الأدبي الحديث ، القاهرة ١٩٦٢م ص١٢٩.

والوصـول إلى غايتـه التى ينشدهـا. ومن هذه الـوسائل مـايتصل بمعجم الألفـاظ، ومنها مايرجع إلى أنماط التراكيب، ومنها مايرجع إلى ألـوان المجاز، مع صحة الأسلوب ووضوحه ودقة التعبير(١).

وإن كنا لانجد كلمة «الأسلوب» مستخدمة فى نقدنا العربى القديم فقد استخدمت كلمات وعبارات أخرى فى مجال وصف النصوص الأدبية وتحليلها وتقييمها، مثل «فصاحة اللفظ» و «جزالة العبارة» و «حسن السبك» و «براعة التأليف» وما إليها من العبارات.

أما الذي أفاض فيه نقادنا العـرب القدماء فهو «اللفظ» و «المعنى» باعتبارهما العنصرين اللذين يتألف منهما «القول» أو «الكلام»(٢).

وتأثر الجاحظ(٣) بفكرة الفصل بين اللفظ والمعنى التي انطوت عليها صحيفة (بشر بن المعتمر ت٢١٠هـ).

أما عبدالقـاهر الجرجانى فقد انفرد من بين النقاد العرب القـدماء باستخدام مصطلح «الأسلـوب» بمعنى النظم فيما يعـرف باسم «نظـريـة النظم» فى سياق حـديثـه عن معنى «الاحتذاء».

وقد أفاد عبدالقاهر بما في النحو من إمكانات تركيبية ووظفها بشكل مباشر فى محاولة خلق نظرية لغوية فى فهم الأسلوب، من حيث كان النحو خالقا للنسق التعبيري الذى يحقق (المزية والفضيلة) بجانب الصحة والسلامة.

ففى مجال أبنية الكلمات قدم النحاة لمحات كاشفة عن دلالة بعض الأبنية وتمايز كل بنية عن الأخرى، وما تنفـرد به كل بنية من حيث دلالتها، **فبنية المصدر -على تنـوعها- غير بنية الاسم، وغير بنية الفعل، وصـيغ المبالغة، وأسـماء الفاعلين، والمفعولين وغيرها، يقـول سيبويـه** -وهو يسمي النسب إضـافـة- فى التفـريق بين صيغـة «فعال» وصيغة «فـاعل» في النسب: «هذا بـاب الإضافـة تحذف فيه يـاء الإضافـة وذلك إذا جعلته صاحب شىء يـزاوله، أو ذا شىء. أما مايكـون صـاحب شىء يعالجـه فإنـه مما يكون «فعالا» وذلك قولك لصاحب الثياب: (ثـواب)، ولصاحب العاج: (عواج)، ولصاحب الجمال التي ينقل عليهـا: (جمال)، ولصـاحب الحمـر التـي يحمل عليهـا: (حمار)، وللـذى يعـالج الصرف: (صراف). وذا أكثر من أن يحصى.

---

(١) انظر د. شفيع السيد، الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي، دار الفكـر العربي ، القاهرة ١٩٨٦م ص٩ وانظر أيضا: د. أحمد درويش، الأسلوب والأسـلوبية، مدخل فى المصطلح وحقول البحث ومناهجه، مجلة فصول، المجلد الخامس، سنة ١٩٨٤م ص٦١.

(٢) انظر : الصناعتين، لأبى هلال العسكري، تحقيق على محمد البجاوى، ومحمد أبوالفضل ابراهيم، القاهرة والحلبى ص٧٥.

(٣) انظر كتابه «الحيوان» تحقيق عبدالسلام هارون ، ج٣ ص٨١٣٢.

واما ما يكون ذا شيء وليس بصاحب صنعة يعالجها فإنه مما يكون «فاعلا»، وذلك قولك لذى الدرع: (دارع)، ولذي النبل: (نابل)، ولذي النشاب: (ناشب)، ولذي التمر: (تامر)، ولذى اللبن: (لابن).

والمعنى النحوي ليس منعزلا بطبيعة الحال عن النص، ولايمكن أن يكون كذلك. ولذلك ينبغي النظر دائماً إلى المعنى النحوي بوصفه الجديلة المزدوجة المفتولة بإحكام من المفردات والنظام النحوي معاً، المنصهرة فى بوتقة «الاختيار» بينهما، بحيث تكون دلالة الكلمة الحقيقية في سياق بعينه جزءا من دلالة الجملة كلها، ومن هنا تكون دلالة الكلمة حصيلة لاجتماع المعنى النحوي والمعنى المعجمي في سياق مخصوص(١).

ويقول عبدالقاهر الجرجاني في الجمع بين المعنى النحوي والسياق: «فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صواباً، وخطؤه إن كان خطأ، إلى «النظم»، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو من معاني النحو قد أصيب به موضعه(٢).

ويقول فى موضع آخر «وإذ قد عرفت أن مدار أمر «النظم» على معانى النحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لاتجد لها ازدياداً بعدها. ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها، ومن هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض»(٣).

ويتخذ الدكتور محمد حماسة هذه المقولة، «وهى تكون دلالة الكلمة من المعنى المعجمي والوظيفي والسياق معا» منطلقا إلى القول ان «الأسلوبية التطبيقية» التى تتعامل مع جانب واحد من جوانب النص –والإحصائية منها على وجه الخصوص– أسلوبية جافة(٤).

واستطاع عبدالقاهر من خلال مفهومه للنحو أن يستكشف جوانب خصبة فى التراكيب، فربط نظامها بالفكر اللطيفة، وكان مدخله لمناقشة قضية الإعجاز القرآنى، وأطلق على نظريته كلمة دقيقة هي «النظم».

والأسلوب أو النظم عند عبدالقاهر هو ترتيب مفردات اللغة ترتيباً مبنياً على العلاقات النحوية، أو معاني النحو كما يسميها، واعتبر الألفاظ رموزاً للمعاني، «فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق»(٥) فالفكر لايتعلق

---

(١) انظر : د. محمد حماسة عبداللطيف، النحو والدلالة، مطبعة المدينة، مصر ١٩٨٣م ص١٧٣.
(٢) دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، مصر ١٩٨٤م ص٨٢، ٨٣.
(٣) المرجع السابق ص٨٧.
(٤) د. محمد حماسة ، النحو والدلالة ص١٧٣.
(٥) دلائل الإعجاز ص٥٢.

باللفظة المفردة، وإنما يتعلق بما بين المعانى من علاقات، والنحو بإمكاناته الواسعة هو الذي يقدم للمبدع كل الاحتمالات الممكنة في تكوين الجملة بحيث يكون النظم عملية تسلسل تركيبى للإمكانات الاستبدالية والقدرة التوزيعية، وفى مقولتهم عن انتهاك اللغة وانحرافها عن النمط المألوف، وذلك باخضاعه المجاز لسيطرة النحو وعلاقاته التركيبية. إن لم نقل إنه جاوزهم بمقولته عن تجدد المواضعه تبعاً لتجدد الاستعمال.

وقدم عبدالقاهر كثيرا من النماذج، محللا لها، كاشفا عن نظامها النحوي، موضحاً للعلاقات التركيبية في هذا النظام، وما لكل ذلك من أثر في الدلالة، وصولاً إلى فردية الاستعمال وما يترتب عليه من وجود مناطق نحوية أثيرة يتحرك فيها كل مبدع. ويكاد يكون المجاز ممثلا لأكبر قيمة في انتهاك النظام اللغوى والخروج على مألوفه، والعدول فيه يبدو وبشكل بارز فى تحديد مفهومه على المستوى اللغوى أو المستوى الاصطلاحى، مما جعل له دوراً بارزاً في الدلالة ومباحثها، ودوراً بارزاً فى خلق الصورة الفنية من خلال مباحث الاستعارة والكناية والتمثيل.

وهكذا اقترب النقد العربي القديم في حركته، أو بمعنى آخر، اتصل بحركة الدرس الأسلوبي، يتمثل ذلك في عملية التمازج بين النقد والبلاغة والنحو، حيث أصبحت بحوث النحويين المنهجية وسيلة لتقييم الأسلوب ورصد خواصه، مثلما نجد في الحديث عن التعجب والاستفهام -مثلا- وخروجهما عن الغرض الأصلي إلى أغراض إضافية تمثل قيما جمالية تعبيرية فى النص الأدبى(١).

والأسلوب عند ابن خلدون هو المنوال الذى ينسج فيه التركيب أو القالب الذى فرغ فيه(٢).

وهو عند حازم القرطاجني «هيئة تحصل عن التأليفات المعنوية والنظم، وهيئة تحصل عن التأليفات اللفظية. ولما كان الأسلوب في المعانى بإزاء النظم فى الألفاظ وجب أن يلاحظ فيه من حسن الاطراد، والتناسب، والتلطف في الانتقال من جهة إلى جهة، والصيرورة من مقصد إلى مقصد، مما يلاحظ في النظم من حسن الاطراد من بعض العبارات إلى بعض، ومراعاة المناسبة ولطف النقلة»(٣).

فالأسلوب -إذن- معان مرتبة قبل أن يكون ألفاظاً منسقة، وهو يتكون في العقل قبل أن ينطق به اللسان أو يجري به القلم. ولايزال هذا هو تعريف الأسلوب إلى اليوم، فهو

---

(١) انظر ص١١٦، ١١٧ وانظر ايضا د. شكرى عياد، الأسلوب في التراث القديم، مجلة فصول، عدد أكتوبر سنة ١٩٨٠م.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص٥٧.

(٣) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق الدكتور محمد الحبيب خوجه، تونس ١٩٦٦م ص٢٦٤.

طريقة الكتابة أو طريقة الإنشـاء، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعانـي قصد الإيضاح والتأثير، أو الضرب من النظم والطريقة فيه(١).

فـالأسلوب يمثل أداة فنيـة لها أهميتهـا وخطورتها حين يـريـد المؤلف أن ينقل فكرتـه وآراءه وعـاطفته ومعـانيه إلى النـاس. ومن هنـا يتدخل الجمهـور أو المتلقى عنصراً ضمن عناصر الحكم على الأسلوب أو لـه، لبيان تأثيره وما نقله من التجربـة، وكيفية الانتقال بما يتطلبه من موسيقى وتصوير لخلق المزيد من التأثير في النفوس»(٢).

وهكذا نجـد أن كلمة «الأسلـوب» قد ظهـرت فى تراثنـا القديم على نحـو ربطت فيه بين مدلول اللفظ وطـرق العرب فى أداء المعنى، أو بينه وبين النوع الأدبى وطـرق صياغته، كما ربطت أحياناً بينه وبين شخصية المبدع ومقدرته الفنية، كما أنها ربطت -أيضا- بينه وبين الغرض الذي يتضمنـه النص الأدبى، وقد يتساوى مفهوم الكلمـة مع مفهوم «النظم» الذي يمثل الخواص التعبيرية فى الكلام، لكن ذلك كله لم يقدم نظرية مكتملة يمكن اعتبارها بحثاً أسلوبياً عربياً فى المجال التنظيري أو التطبيقي.

أما كلمة «الأسلوب» فقد ظهرت خـلال القرن التاسع عشر عند الغربيين، لكنهـا لم تصل إلى معنى محدد إلا فى أوائل هـذا القـرن، وكان هـذا التحـديد مـرتبطـاً بشكل وثيق بأبحاث علم اللغـة، فحين ظهرت بـوادر النهضة اللغـوية فى الغرب فيما عـرف بالفيلـوجيا Philalagy أكدت الصلـة بين المباحث اللغـوية والأدب. لأنها لم تنظر إلى الـدراسة اللغـوية باعتبارها جهود علماء الغرب فى إرساء معالم الأسلوبية(٣).

وحظيت دراسة الأسلوب Style-Study منذ مطلع هذا القرن بعناية الباحثين في أوربا، واتجه اهتمامهم إلى تقديم بعض المبـادىء والأسس النظرية العـامة المتعلقة بـه، أو دراسة بعض الظواهر الأسلوبية فى عمل أدبي معين أو عند كاتب بذاته.

وانصب الاهتمام على النسيج اللغوي للعمل الفنـي، على الصنعة الأدبية نفسهـا، والبعد عما هو خارج النص، كبعض الحقائق التي تتصل بحيـاة المؤلف، وسيرته الذاتية، والأحكام الأدبية التقليدية التى تسبق العمل الأدبي(٤).

يقول «فاليرى» إن الأسلوبية إنما تبحث التأثيرات الأدبية، وتفحص الوسائل التعبيرية والإيحائيـة التى يبتكرهـا الكاتب أو الشـاعر لترفـع من طاقـة الكلام وقـدرته على النفـاذ

---

(١) انظر : أحمد الشايب، الأسلوب ، النهضة المصرية، القاهرة ، الطبعة الثامنة ١٩٨٨م ص٤٠، ٤٤.
(٢) انظر : د. عبدالله التطاوى، قضايا الفن في قصيدة المدح العباسية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٨١م ص٤٥٤.
(٣) انظر : د. محمد عبدالمطلب، البلاغة والأسلوبية ص١١٧ - ١١٩.
(٤) انظر : G. Haugh. Styleand Stylistics, Landan, 1969, 14-15.

والتأثير، أو على حد تعبير أحد النقاد الأمريكيين إنها «دراسة ما يتجاوز منطق اللغة في التعبير»(١).

وإذا كان «علم اللغة» ينصب على دراسة ما يقال، فإن «الأسلوبية» تنصب على كيفية ما يقال، بحيث تتحول الحقائق اللغوية إلى قيم جمالية فى الأداء الإبداعى دون وقوع فى شرك الفصل بين الشكل والمضمون.

وذكر «بوهلر» أن للغة ثلاث وظائف فى عملية الإبداع الدلالي، هى الوظيفة الوصفية، والوظيفة التعبيرية، والوظيفة الاقتصادية، وقال إنها عادة ما تجمتع في المنطوق اللغوى الواحد.

ثم جاء «جاكبسون»، وعدل فى تصنيف «بوهلر» واصطنع فكرة «الأداء» بدلا من «الاقتضاء»، وفكرة «المرجعية أو الإحالة» بدلاً من «التمثيل أو الوصف» وصنف للغة ست وظائف هي:

١- **الوظيفة المرجعية:** وتتعلق بموضوع الرسالة.. وهذه الوظيفة تحدد العلاقات بين الرسالة والموضوع الذي تدل عليه، ويقال لها الوظيفة الإحالية أو الدلالية.

ويمكن أن نسميها عملية تحديد المشكلة أو الموضوع بحيث ينحصر ويتضح لدى المتلقي ولايكون ذلك إلا بقدرة المرسل على توضيحه وتجليته وتنقيته من الغموض.

٢- **الوظيفة الندائية:** وتتعلق بالمخاطب وموقفه النفسي، وتعود إلى العلاقات التي بين الرسالة والمتلقى فى مهمة لموضوعها، ويقال لها الوظيفة الإفهامية (مراعاة مقتضى الحال فى البلاغة العربية).

٣- **الوظيفة الانفعالية:** وتتعلق بالمتكلم وقدرته على إبلاغ رسالته، وتحدد العلاقات التى بين المتكلم أو المرسل والرسالة أو المنطوق اللغوي.

٤- **الوظيفة الاتصالية:** وتتعلق بما يستخدمه المتكلم من وسائل لتأمين عملية الاتصال، إذ تحرص على إبقاء التواصل بين المرسل والمتلقي (عملية تشويق المتلقي وجذب انتباهه للرسالة).

٥- **الوظيفة الشعرية:** وتشير إلى قيمة الرسالة نفسها، وقد عرفها «جاكبسون» بأنها «علاقة ذاتية، هي العلاقة بين الرسالة وبين ذاتها إذ تكون الرسالة غاية في ذاتها.. «وكأنه يقصد ما يقصده أصحاب نظرية الفن للفن»(٢).

---

(١) انظر : S. Ulmann, Meaning and Style, Oxford, 1973, P.41 وانظر أيضا د. شفيع السيد، الأسلوبية ص٧٠ وما بعدها.
(٢) د. عبدالرؤوف مخلوف، من قضايا اللغة والنقد والبلاغة، دار الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى ١٩٨١م ص١١١.

٦- **الوظيفة «الماوراء لغوية»**: وتعود إلى العلاقات اللغوية نفسها، وهي تتعلق بقابلية المضمون الكلامي للصياغة وأن يصبح مدونة ذات مفروضات.

ويرى «جاكبسون» أن كل حدث لغوي يتضمن رسالة وأربعة عناصر مرتبطة بها، هي: المرسل، والمتلقي، ومحتوى الرسالة، والكود أو الشفرة المستعملة فيها، أما علاقة هذه العناصر بعضها ببعض فمتنوعة متغيرة، فقد يحدث أن تعمل الوظائف المختلفة لها بشكل منعزل، لكن المألوف أن نجد مجموعة من الوظائف متماسكة، مترابطة، لاتتكدس مع بعضها البعض ولكنها تنتظم فى مراتب(١).

واقترح «جاكبسون» نموذجاً شاملاً للاتصال اللغوي، قدم فيه ستة عناصر، شرحها كما يلى:

يوصل المرسل **خبرا إلى المستقبل**، وينبغي أن يعتمد ذلك على **سياق** (ويقصد به المحيط غير اللغوي)، ويتطلب الأمر **نظاماً لغوياً** مشتركا بين المرسل والمستقبل، **ووسيلة اتصال**. والمقصود بوسيلة الاتصال قناة بالمفهوم النظري الإعلامى، والتي من خلالها يتصل المرسل والمستقبل أحدهما بالآخر.

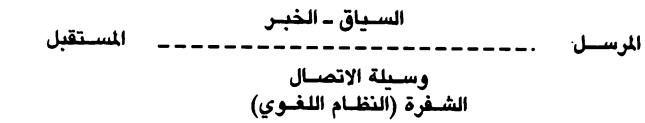

ويمكن عرض تلك الوظائف، التى يرتبط بعضها ببعض (بالنظر إلى العوامل الأساسية فى مسألة الاتصال)، كما يلي :

انفعالية	سياق شعرية اتصالية لغوية	تقويمية

وقد وضعت العناصر الهامة هناك والصلات بينها في نموذج يمكن تمثيله فى الشكل التالى:(٢)

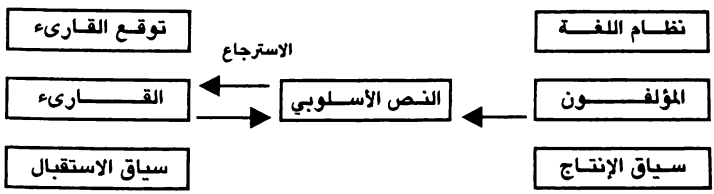

---

(١) للتعريف على الوظائف الاساسية والوظائف الثانوية انظر : د. صلاح فضل، نظرية في النقد الأدبي، الانجلو المصرية، الطبعة الثانية ١٩٨٠م ص٣٨٣. وما بعدها - د. محمد عبدالمطلب، البلاغة والأسلوبية ص١٥٧ - ١٧٩.

(٢) برند شبلنر، علم اللغة والدراسات الأدبية ، ترجمة د. محمود جاد الرب، الدار الفنية، القاهرة ص ١٩٨٧١ ص ١٠٧ - ١٠٩.

وعرض «ألمان» صورة وافية لعلم الأسلوب كما استقر -حوالى منتصف هذا القرن- لدى المدرسة الفرنسية من تلاميذ «بالى» وهو «علم الأسلوب الوصفي» كما يسمونه، وموضوعه، كما يعنون «ألمان»، دراسة «الإمكانات الأسلوبية فى لغة ما». وقدم مثالاً من عنده لهذا النوع من الدراسة حين عدد «القيم الخاصة» لتركيب فرنسي خارج عن المألوف، وهو تقديم الفعل على فاعله فى الجملة غير الموصولة والمبدوءة بظرف. على أنه أضاف إلى هذا النوع عرضاً موجزا لما أسماه «الجمل الإيحائية»، وهذه لاتستمد قيمتها من التشكيل اللغوى ذاته كالنوع السابق، بل من «الأعراف اللغوية الاجتماعية» Rigirsters التى عني بها الباحثون اللغويون والأسلوبيون الإنجليز بصفة خاصة(١).

فاللغة فى تركيباتها تنطوى على جانب يتصل بالفكر، وجانب آخر يتصل بالوجدان، وقد يطغى أحدهما على الآخر بحسب الحالة التى يكون عليها المتكلم، وحسب الظروف التى تحيط به.

وتاتى الأسلوبية لتتبع ملامح الشحن العاطفى فى الخطاب بوجه العموم من حيث استخدام اللغة بشكل متجدد، يختلف إلى حد بعيد عن ذلك النمط التركيبي الذى نلمسه فى الخطاب النفعى العادى، فالأسلوبية تعنى بالجانب العاطفى فى الظاهرة اللغوية -أو ما يسميه «ج.كوهين» بالانتهاك(٢). خروجا على النمط اللغوى العقلانى الخالص. وتحاول قدر جهدها استكشاف الكثافة الشعورية التى يتلون بها الخطاب.

لذلك حدد «بالى» حقل الأسلوبية بظواهر تعبير الكلام، وفعل ظواهر الكلام المليئة بالإحساس.

فمعدن الأسلوبية ما نجده فى اللغة من وسائل تعبيرية تبرز الملامح العاطفية والجمالية، بل إنها تكشف أيضاً عن النواحى الاجتماعية والنفسية من خلال النص الأدبى، فهى إذن تنكشف أولا بالذات فى اللغة الشائعة التلقائية قبل أن تبرز فى الأثر الفنى(٣).

وكما يقول «تشوسكى» إن النقطة الأساسية التى تمركزت حولها الدراسات الأسلوبية هو المظهر الإبداعى للغة، حتى على مستوى الاستعمال العادى، إن كل المظاهر لتوحى بأن الذات المبدعة تخترع لغتها -بوجه من الوجوه- كلما عمدت إلى التعبير عن نفسها، أو هى تعاود اكتشاف تلك اللغة كلما سمعت الآخرين -من حولها- يتكلمون بها، وكأنما هى قد تمثلت فى صميم جوهرها المفكر نظاماً متسقا من القواعد. وبعبارة أخرى، يمكن القول بأن كل الظواهر توحى بأن الذات المتكلمة تملك ضربا من النحو الذى يسمح لها بابتكار لغتها الخاصة(٤).

---

(١) انظر : د. شكرى عياد، اتجاهات البحث الأسلوبي، دار العلوم للطباعة والنشر، السعودية ١٩٨٥م ص١٤، ١٥.
(٢) Stcucture du Language Paetique - P. 100. نقلاً عن د. محمد عبدالمطلب، المرجع السابق ص١٤٤.
(٣) عبدالسلام المسدى، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب ، ليبيا، طرابلس ص٣٧.
(٤) د. زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، مكتبة مصر ، القاهرة ص٧٢.

ولاشك أن كل مبدع يصل إلى مرحلة النضج يستطيع أن يفهم ثم ينتج تركيبات لاتنتهى، فاللغة بوسعها أن تستعين بعدد محدد من الوسائل لتنتج عدداً لايتناهى من الاستعمالات، وهذه الاستعمالات هى التى ترتكز عليها الأسلوبية فى مظهرها الحسي، باعتبار أن الكلام الأدبى مجموعة من الجمل لها وحدتها المميزة، ولها قواعدها ونحوها، ودلالتها، ولأسلوبيون يتعاملون مع الجملة كتعاملهم مع النص بأكمله، لأنها قابلة للوصف على مستوياتها المتعددة، من صوتية، وتركيبة، ودلالية(١).

فالأسلوب هو طريقة المرسل فى توظيف اللغة للإبانة عن الموضوع، بدءاً من الإبانة البسيطة وانتهاء الإبانة التى لايبلغ شأوها إلا الأقلون، ومروراً بإبانات الملايين من الذين يستخدمون اللغة وسيلة إبانة.

وتحت كلمة «الطريقة» أو «الشكل» أو «النمط» أو الصورة» تأتى دراسات لاحصر لها، منها ما يتصل بالدلالة، ومنها ما يتصل بالبنية، ومنها ما يتصل بالنبرة، ومنها ما يتصل بالجرس الموسيقى، ومنها ما يتصل بالتركيب والنحو، ومنها ما يتصل بالعلة الباعثة، ومنها ما يتصل بالغاية.. وتلك في جملتها أدوات لابد للناقد من الإلمام بها كيما يستطيع الحكم على النتاج اللغوى أو الأسلوب(٢).

إن الأسلوب يمكن أن نعتبره طبيعة بيانية للكتابة ذات حدود شكلية. وليست البيانية هنا بالمعنى الموروث عن البلاغة القديمة، ولكن بمعنى أن لغة الكتابة تختار لنفسها أشكالاً تتعدد بتعدد الأنواع.

فالأسلوب يرتبط بوسائل تعبيرية معينة نتجت من استعمال معجم الكلام الذى خلقت له اللغة نظاماً مرتباً، ويأتى الاستعمال ليحدث خللا فى هذا النظام، بدءا من اللغة المشتركة، ووصولاً للوظيفة المزدوجة لفن اللغة وفن الأدب.

إنه النمط الذى يتبعه المنشىء فى استخدام اللغة على نحو خاص لأداء ما يقصد إليه من تصوير وإحضار. ونعنى بالنمط اختيار الألفاظ بأعيانها، وطريقة تركيبها بعضها مع بعض، على النحو الذى يشاؤه، بحيث تجىء العبارة فى آخر الأمر ولها هيئة خاصة، وتركيب خاص، ونمطية خاصة، يستتبع ذلك كله تصويراً وتأثيراً خاصين، بحيث نجد أن شخصين لايمكن أن يتفقا فى الأسلوب تمام الاتفاق فى نقل فكرة ما. ومن ثم يمكن أن نقول إن أسلوب الرجل هو الرجل ذاته، وحيث لاتتطابق صورة رجلين ولو كانا توأما، فإن أسلوبين لن يتطابقا أبداً، فلا المفردات هى المفردات، ولارصف الكلمات وترتيبها هو

---

(١) د. محمد عبدالمطلب، البلاغة والأسلوبية، ص١٤٥.

(٢) انظر : د. عبدالرؤوف مخلوف، من قضايا اللغة والنقد والبلاغة ص١١٥، ١١٦.

الرصف والترتيب، ولا الشكل العام هو الشكل، وإنما هذا قصيد، وهذا مقال، وهذه رواية وتلك قصة.

إن كل واحد يصدر فى لغته عن ضخصيته، تلك التى تختلف من فرد إلى فرد تبعا لاعتبارات لا يأتى الحصر عليها، فخلقة الفرد وشكله من طول وقصر وقماءة وفراعة، وما عليه حواسه من عمى أو بصر، وما يحيط به من بيئة، وما يدور فيه من نوع العيش، ورخائه وبؤسه، ونعيمه أو شقائه، وما عليه مجتمعه بحضارته وثقافته، جميع ذلك يوجه أسلوبه، تماماً كما يوجه تفكيره.

وخلاصة ذلك أن الأسلوب أثر لعوامل لايسهل عدها، بل لايمكن عدها، فغرض الكاتب حين يكتب، ومذهبه الدينى والسياسي والاقتصادى، وثقافته، وحدة طباعه، أورقة شمائله، ورضاه عن مجتمعه أو سخطه عليه، ومزاجه الخاص.. كل ذلك يتدخل فى تشكيل أسلوبة(١).

واللغة العربية من اللغات التى تتميز بعدم حتمية الترتيب فى أجزاء الجملة، لكن المألوف فيها أن نجد بعض الرتب المحفوظة -وخاصة فى مجال الأسلوب الإخبارى- كتقدم المبتدأ على الخبر، والفعل على فاعله، والفاعل على مفعوله، وهى أمور تحدث فيها النحاة كثيراً فى مجال التعبير المألوف، وبالمثل أيضاً تحدثوا عن الرتب المحفوظة فى التأخير، كتأخير الصلة عن الموصول، والصفة على الموصوف، والمضاف إليه عن المضاف، ومع كل هذا تتأتى مقدرة المؤلف في قلب هذه الأحوال متخطياً لها بغية الانحراف عن النمط المألوف، وقد يصبح هذا الانحراف يوماً نمطا مألوفا هو الآخر -فى مثل ما أطلقوا عليه المجازات الميتة- فمستعمل اللغة يتصرف بحرية فى تنظيم تراكيبه دون استسلام لاستخدام معين، ويصبح هذا التصرف الجديد خاصة أسلوبية قد تأخذ شكلا عاماً فى عصر من العصور نتيجة لجهد مبدعين متعددين، أو يكون نتيجة جهد فردى لشخصية أدبية فذة تفرض باستعمالها نمطا فى الأداء يؤثر فيمن حولها مكانا وزماناً، كالجاحظ أو بديع الزمان وغيرهما من أصحاب الكتابة فى العصور القديمة والحديثة(٢).

إن من أهم مباحث الأسلوبية رصد انحراف الكلام عن نسقه المألوف، أو «الانتهاك» -بحسب تعبير «ج.كوهين»- الذى يحدث في الصياغة، والذى يمكن بواسطته التعرف على طبيعة الأسلوب، بل ربما كان هذا الانتهاك هو الأسلوب ذاته، وما ذلك إلا لأن الأسلوبيين نظروا إلى اللغة فى مستويين: الأول: مستواها المثالى فى الأداء العادى. والثانى: مستواها الإبداعى الذى يعتمد على اختراق هذه المثالية وانتهاكها.

---

(١) د. عبدالرؤوف مخلوف ، من قضايا اللغة والنقد والبلاغة ص١٠٥، ١٠٦.
(٢) انظر : د. محمد عبدالمطلب ، البلاغة والأسلوبية ص١٣٣.

والمستوى العادى هو الذى يعتمد النحو -التقعيدي فى تشكيل عناصره، كما يعتمد اللغة- في تنسيق هذه العناصر، وثمرة الترابط بين ما يقول به النحاة وما يقول به اللغويون ظهور مثالية اللغة في استخدامها المألوف، وهى مثالية افتراضية أكثر منها تطبيقية واقعية.

ورغم إدراك البلاغيين أن اللغة العربية تتميز بعدم حتمية ترتيب أجزاء الجملة تبعاً لوجود حركة الإعراب التى تحدد المعنى، فإننا نجدهم يفترضون أصلا فى التركيب يقاس إليه العدول عنه، ففى الحديث عن المسند إليه يرون أن أصله التقديم، ولامقتضى للعدول عنه إلا لأغراض حددوها ووصفوها(١).

ويجب أن نوجه اهتماماً خاصاً إلى أن دراسة الأسلوب الفردى يجب ألا تتركز حول الأنماط المنحرفة عن الأصل فحسب، باعتبارات إبداعات براقة واضحة، بل إن دراسة الأسلوب الجارى على النسق المألوف قد يبهرنا أكثر مما يبهرنا النوع الأول، ولذا يجب أن نتحرى في الصياغة ما فيها من منبهات تعبيرية، لها طبيعة جمالية من ناحية، ولها طبيعة استمرارية من ناحية أخرى، كما يجب أن نتحرك وراء التكراريات التى تأخذ شكل ظاهرة أسلوبية فى بعض ألوان الأداء، مما يكسب المضمون حيوية تؤثر فى الشكل اللغوى، فتصبح عملية الأخذ والعطاء بينها قطب النظام الجمالى للكلام.

فمثلا قول النابغة: (فإنك كالليل) الذى هو مدركى. يحقق مستويين دلاليين فى آن واحد: **لأول** : قدرة الملك على الوصول إلى أى مكان بنفسه أو بعماله. **الآخر**: حالة الغضب والسخط التى تسيطر على هذا الملك، والتى يعيشها الشاعر.

ووجود أداة التشبية فى (فإنك كالليل) يقتضى المغايرة بين المشبه والمشبه به، أما قوله (أنت نهار) بحذف أداة التشبيه جرد النهار لوصف الملك بالخير والحياة.

الأسلوب في كتاب الضياء :

إذا انتقلنا إلى البحث في أسلوب كتاب «الضياء» وجدنا أن للعوتبي مناطق نحوية أثيرة يتحرك فيها، من حيث التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والإيجاز والإطناب، والإيضاح والإبهام، ومن حيث التصريح والتضمين، وغير ذلك مما يكون له أثر فى الدلالة.

١- فهو في بعض الأحيان ينتهك النظام اللغوي ويخرج على مألوفه، أو يكرر ألفاظا بعينها من المنبهات الفنية، بما يجعل لذلك دوراً بارزاً فى الدلالة.

أما من ناحية بناء العبارة فإن أسلوبه محكم البناء، تأخذ فيه الألفاظ بعضها بعجز بعض، وتتآلف وتلتحم التحاماً قوياً حتى لايوجد بين أجزاء الكلام تنافر.

---

(١) انظر في ذلك وغيره من أنواع العدول : - مفتاح العلوم ، للسكاكى ص٨٤ وما بعدها - المثل السائر، لابن الأثير ٢/ ١٨٤.

يقول مثلا فى تعريف الإسلام والكفر :

«وإجمالاً الإسلام فى كلمة واحدة، طاعة الله عز وجل، وفى كلمتين طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله ﷺ، وفى ثلاث، القول والعمل والمعرفة، فالقول الإقرار باللسان، والمعرفة بالقلب، والعمل بالأبدان».

ثم أوضح العوتبي الجانب المقابل لهذه الصورة، ليحدث ذلك التوازن الذى يتميز به أسلوبه، فعرف الكفر بقوله: «وإجمالا الكفر فى كلمة واحدة معصية الله، وفى كلمتين معصية الله ومعصية رسوله. والذى دعا الله إليه الخلق ثلاثة أشياء، أن يشهدوا له بالربوبية، ويخضعوا له بالعبودية، ويدينوا له بالطاعة والتوحيد. وحجة الله فى الأرض العقل والاستطاعة والكتاب والسنة والرسل. والدليل على الحق الهدى والرسل والميثاق والإجماع. وأربع لولاهن لهلك الناس جميعاً، هن الوقوف والرخصة والتوبة والتقية»(١).

تعريف الكفر يقابل تعريف الإسلام، ويتوازن مع جمله، ويتضمن كل تعريف على حدة إجمالا ثم تفصيلاً، وقد برزت عند العوتبي ظاهرة المزج بين الفقه واللغة حيث جاء تفصيله لما أجمل على مراحل بدقة وإحكام، وتعريفه الإسلام بأنه «طاعة الله عز وجل» فيه إيجاز وقصر، حيث طاعة الله عز وجل تتضمن طاعة رسوله ﷺ، وتتضمن كذلك الإيمان والعمل، فالإيمان بالقلب، والعمل قول باللسان وعمل بالأبدان.

وفى مجال تعريف الإسلام أردف لفظ الجلالة بجملة «عز وجل»، وقد ناسب ذلك الحديث عن موقف الطاعة إذ يكون الله هكذا فى قلوب المطيعين. وكذلك أورد جملة «ﷺ» بعد كلمة «رسوله»، أما فى مجال الحديث عن الكفر والكافرين فلم يورد هذه الجمل، وقد ناسب ذلك موقف الكافرين من معصية وجحود.

وفى تعريفه للكفر توازنت الجمل مع تعريف الإسلام فى المرحلتين الأولى والثانية، ولكنه فى المرحلة الثالثة انحرف عن الخط الذى سار عليه وخرج على ذلك التوزان فناسب ذلك ما فى الكفر من انحراف. ومن ناحية أخرى جاء أسلوبه طبيعياً غير متكلف، فلم يعتسف ذلك التوازن، فأثار القارىء ونبهه بكسر تلك الرتابة.

ولكنه أبقى على الرقم «ثلاثة» فى هذه المرحلة الثالثة ليحتفظ بذلك الخيط الذى يرتبط بين الجانبين، فقال: والذى دعا إليه الخلق ثلاثة أشياء، أن يشهدوا له بالربوبية، ويخضعوا له بالعبودية، ويدينوا له بالطاعة والتوحيد».

---

(١) العوتبي ، الضياء ج٢ ص٨٤.

وكأنما أراد العوتبي أن تتضمن المرحلة الثالثة من تفصيل تعريفه للكفر ما يبين جحود الكافرين وضلالهم وعصيانهم.

وفى عبارة العوتبي إطناب عن طريق الإيضاح بعد الإبهام، فقد جاء المعنى مجملا مبهما في الجملة الأولى، فتشوقت نفس المتلقى إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فإذا جاء المعنى مفصلاً بعد ذلك «تمكن في النفس فضل تمكن وكان شعورها به أتم شعور، ولذتها بالعلم به أكمل»(١).

ومن ذلك أيضا قوله: «وأربع لولاهن لهلك الناس جميعاً، هن الوقوف، والرخصة، والتوبة، والتقية».

تقديم الخبر فى الجملتين، وذلك للاهتمام به، وهو الأولى «حجة الله فى الأرض»، وفى الثانية «الدليل على الحق»، وناسب تأخير المبتدأ أن تتوالى المعطوفات بعدة في الحالين.

ومن الإطناب أو الإجمال والتفصيل قوله «قال أصحابنا الكفر كفران، كفر جحود، وكفر نعمة، وكفر الجحود هو الكفر بالتنزيل. وكفر النعمة هو الخطأ فى التأويل مما تصيبه الناس دينا وادعوا أنه الحق فى مخالفتهم، فهم عندنا بذلك ضلال هالكون إلا أن يتوبوا ويراجعوا الحق»(٢).

جاء الكلام مجملا مبهما فى قوله «الكفر كفران»، ثم فصل ذلك وأوضحه. بالكلام الذى جاء بعده. وهذا اللون هو ما دعاه البلاغيون بـ «التوشيع»(٣)، وهو أن يؤتى فى عجز الكلام -غالبا- بمثنى، مفسر باسمين، أحدهما معطوف على الآخر.

ثم أورد العوتبي القول المخالف لقول أصحابه فى أدب وتواضع، ودون طعن أو تجريح أو تشهير وتسفيه، وإنما اكتفى بإيراد الأدلة النقلية والعقلية على صحة قول أصحابه، يقول: «وأنكر مخالفونا قول أصحابنا فى كفر النعمة، وقولهم إن الكفر كفر واحد وهو كفر الجحود، والله يوفقنا للصواب. عن النبى (ﷺ) أنه قال: «من قال لأخيه المسلم يا كافر فقد كفر أحدهما أو كلاهما». وتأول ذلك كفر نعمة لاكفر شرك. وقال (ﷺ) «من أتى كاهنا أو ساحراً فصدقة فيما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد (ﷺ)، يعنى كفر نعمة لاكفر شرك الكاهن الذى يخط على الأرض يتكهن فى ذلك»(٤).

---

(١) انظر : الإيضاح، للخطيب القزويني، تحقيق لجنة من علماء الأزهر، مكتبة المتبني ، بغداد ص١٩٥.
(٢) العوتبي ، الضياء ج٣ ص٨٥.
(٣) انظر : النكت فى إعجاز القرآن للرماني (ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن) تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، مصر.
(٤) الضياء ج٣ ص٨٥.

ويستخدم العوتبي عبارات تفيد التواضع، ومن ذلك قوله «والله أعلم» أو «فيما علمت» وقال في الموقف الذى نحن بصدده «والله يوفقنا للصواب».

واستدل العوتبى على أن كفر الكاهن أو الساحر يختلف عن كفر من يأتيه فيصدقة عن طريق العقل، ومن ذلك أن حد الساحر القتل، وليس كذلك من يأتيه ويصدقه.

٢- تصوير المعانى التى يتناولها فيجعلها مشخصة ماثلة أمام الأعين:

ومن أمثلة ذلك تشخيصه العلم على سبيل الاستعارة المكنية، يقول:

العلم ذو مفاضل كثيرة فرأسه التواضع، وعينه البراءة من الحسد، وأذنه الفهم، ولسانه الصدق، وفهمه الفحص، وقلبه حسن النية، وعقله سعة المعرفة، ويده الرحمة، ورجله زيارة العلماء، وهمته السلامة، وحكمته الورع، ومستقره سعة الرأى، ومحله الإناة، وسلطانه العدل، ومملكته القناعة، ورئيسيه النجاة، وقائده العافية، ومركبه الوفاء، وسلاحه لين الكلام، وسيفه الرجاء، وقوسه القناعة، وسهمه المحبة، ورمحه التقوى، وفرسه المداراة، وجيشه المشورة، وماله الأدب، وحربه المكابدة، وذخيرته التوبة، وزاده المعرفة، ومأواه الموادعة، ودليله الهدى، ورفيقه مودة الأخيار»(١).

٣- فى الأحكام الفقهية اليقينية فيما يتصل بالحلال والحرام يأتى أسلوبه قاطعاً، فى لغة تقريرية، مستخدما أفعالاً محددة مثل: يجب، أو يجوز، ولايجوز، ومن ذلك قوله: «والصلاة تجب على من حصل منه الإيمان»(٢) وقوله «والإقامة سنة، وهى كالأذان، لازيادة فيها إلا قوله: قد قامت الصلاة مرتين، مثنى مثنى»(٣) وقوله: «ولايكون المؤذن إلا ثقة أمينا»(٤)، وقوله: «ولايجوز أذان المرأة ولا إقامتها»(٥)، وقوله: «ولايجوز أن يغتصب المسجد، وليس لمغتصبه أن يصلى فيه»(٦)، وقوله: «جائز أن تستعمل بئر المسجد لغسل الثياب وسقى الدواب وكذلك دلوها»(٧).

أما فى المسائل الأخرى فإن أسلوبه يأتى منبسطاً فضفاضنا مستقصياً كل رأى، موضحاً الرأى الذى يوافقه. فاذا كان الاتفاق هو الأظهر بدأ بما اتفق عليه سواء كان بين العلماء بصفة عامة أو بين أصحابه، ومن ذلك قوله: «أجمعت العلماء أن النبى (ﷺ) صلى بأصحابه عند الكعبة خلف مقام إبراهيم، وجعل المقام بينه وبين الكعبة، وصف أصحابه خلفه صفوفاً مستديرة كالحلقة»(٨).

---

(١) الضياء ج١ ص٥٣.
(٢) الضياء ج٥ ص٩.
(٣) المرجع السابق ص١٣٦.
(٤) المرجع نفسه ص٦٤.
(٥) المرجع نفسه ص٦٥.
(٦) المرجع نفسه ص٣٦.
(٧) المرجع نفسه ص٤٢.
(٨) المرجع نفسه ص٩

ويقـول: «اتفق أصحابنـا -فيما علمت- أن عدد الأذان الـذى جاءت بـه الروايـة خمس عشرة كلمة»(١).

وإن كان الاختلاف هـو الأظهر يبدأ بذكر الخلاف، ثم ينتهى فى النهايـة إلى القول الذى يـوافقـه مؤيـدا بـالأدلـة والحجج. يقول مثـلا: «اختلف النـاس فى معني قـول النبى ﷺ: «المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة»(٢).

(١) الضياء ج٥ ص٦٣.
(٢) الضياء ج٥ ص٥٧.

ثالثـــاً : اللغـــة :

جمع العوتبي بين علـوم اللغة والاشتقـاق، والتبحر فى اللفقـه وعلومـه، ومزج معـرفته اللغوية بـالمعرفة الفقهية، فعـرف المعانى التى تحدث عنها، وعرف مقـابلها، ووظف المعنى اللغوى فى الاستدلال على المعنى الفقهى أو الحكم الشرعى.

بدأ العوتبي بـاب «في شيء من الأصول» بتعريف الأصل والفـرع، يقول: «الأصل ما عـرف به حكم غيره، والفـرع مـا عرف حكمـه بغيره، وقيل الأصل مقـدمة العلم، والفـرع نتيجة، والواجب على من أراد الفقه أن يعرف أصول الفقـه وأمهاته، فيكون بناه على أصول صحيحة، ليجعل كل حكم فى موضعه، ويجريه على سننه، وليستدل على معرفة ذلك بالأدلة والاحتجاجات الواضحة، لأن لايسمى العلة دليـلاً ولا الدليل علة والحجة علة، وليفرق بين معانى ذلك ليعلم افتراق حكم المفترق واتفاق المتفق»(١).

ويصل من تعـريف **«الأصل» ومقابلـه «الفرع»** إلى حكم فقهي وهو وجـوب معرفة أصول الفقة على من أراد الفقه.

ويعرف المال فيقول: «والمال ظل زائل، وعارية مسترجعة، وقيل سمى المال لأنه ميال. ويقال رجل مائل إذا كـان ذا مال. وليس فى كثرة المال فضيلة، ولـو كان فضيلة لخص الله تعالى بها من اصطفاه لرسالته واجتباه لنبوته، وقد كان أكثر أنبياء الله تعالى عليهم السلام وأوليائه فقراء لايجدون بلغة حتى صاروا مثلا فى الفقر... ولعدم الفضيلة فى المال منحه الله الكافـر وحرمه المؤمن... والمال لايفـرح به عاقل، ولاينتفع بـه جاهل، لأنه يبيـد فيما يبيد، ولايفيده -أيضا- حمداً عاجلاً، ولاذخراً آجلاً»(٢).

اتخذ العوتبي التعريف اللغوى للمال دليلاً على عدم فضيلته، إضافة إلى دليل آخر، عقلى وهو أن الله تعالى لم يخص به من اصطفاه لرسالته، فقد أكثرهم فقراء.

وقـد وظف العوتبي المعنـى اللغوى فى الاستـدلال على المعنى الفقهى، ومـن ذلـك استدلاله على تحريم الخمرة بكتاب الله تبارك وتعـالى فى قوله: «إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق»(٣)، يقول العوتبي: «فالخمرة تحريمها بكتاب الله تبارك وتعالى فى قوله «والإثم»، فالإثم ضرب من الخمر، ويدل على ذلك قول الشاعر:

---

(١) الضياء ، ج٣ ص٧.
(٢) الضياء ج١ ص٦٥.
(٣) الضياء ج٤ ص١٧٩.

شربـــت الإثـــم حتـــى ضـــل عقلي

كـــذالـك الاثم يـــذهب بـــالعقـــول

ومن ذلك أيضـا استـدلاله على وجـوب دنـو المصلى من السترة، يقـول: «ومن صلى إلى سترة فليدن منها، لما روى عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا صلى أحدكم إلى شيء فليرهقه»، وقد فسر العوتبي قول النبي ﷺ «فليرهقه» بمعنى فليغشه وليدن منه ولايبعد منه، مستدلاً على ذلك بالمعنى اللغوى لكلمة «رهـق» واستعمال العرب لها «يقال: رهقت الشيء وأرهقته شرا، إذا غشيته إياه. وقال الله عز وجل ﴿ولاترهقني من أمرى عسرا﴾(١)، أى لاتغشنى. وقوله تعالى: ﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولاذلة﴾(٢)، أى لايغشى. وأرهق فلان الصـلاة إذا أخرها حتى يـدنو من الأخـرى. وقد أرهقتنى الصـلاة إذا دنـا وقتها فخفت أن تفـوتك، وأرهقت فلانا، أعجلته. ومثله قد أرهقنى بولى، ورجل مرهق، وملحق، ومدرك، ومستلحق، قد لحقته الخيل. وتقـول قـد أرهقنـاهم الخيل فهـم مـرهقـون، أى الحقنـاهم الخيل فهم ملحقـون. وأرهقتهم أمرا صعباً أى حملتهم عليه»(٣).

وكما استعـان العوتبي بـالمعنى اللغوى على الـوصول إلى المعنى الفقهى، استـدل بالمعنى الفقهى على صحـة المعنى اللغوى، فقال فى تعريفه للصـلاة: الصلاة من طريق اللغة الدعـاء، قال الله جل ذكره: **﴿خذ من أموالهم صدقـة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم﴾**(٤) أى ادع لهم. وقوله تعالى: **﴿وصلوات الرسول﴾**(٥) أى دعاء الرسول. وأما الصلاة الشرعية فهو ما ضم إلى الدعاء من الركوع والسجود والقراءة وغير ذلك مما وقف الرسول ﷺ وبينه من مراد الله تعالى بقوله «أقيموا الصلاة».

يقول العـوتبي بعد ذلك: «ويـدل على أن الصلاة دعـاء من طريق اللغـة أن الصلاة على الميت دعاء ليس فيها ركوع ولاسجود والله أعلم»(٦).

ويورد بعـد ذلك كثيراً من الاستشهادات من أقـوال العرب (شعرا ونثـرا)، ومن القرآن والحديث، مما وردت فيه «الصلاة» بمعنى الدعاء أو بمعان أخرى مثل الرحمة.

وكثيراً مـا يتطرق العـوتبي إلى شرح معنى كلمات وردت فى النص المستشهد بـه، وذلك خدمـة للمعنى الأصلي الذى يكـون بصدده ومن أمثلـة ذلك أنه أثنـاء تعريفـه القبلة وتعليل تسمية الكعبة قبلة، استشهـد بقوله تعالى **«فلنولينك قبلة ترضـاها، فول وجهك شطـر المسجـد الحرام»**، فتطرق إلى شرح كلمـة «شطر» في سبيل تـوضيح معنى القبلة،

---

(١) الكهف / ٧٣.
(٢) يونس / ٢٦.
(٣) الضياء ج٥ ص١٧.
(٤) التوبة / ١٠٣.
(٥) التوبة ٩٩.
(٦) الضياء ج٥ ص٧٩.

يقول: «قيل شطره جهته فى كلام العرب. والشطر والجهة والتلقاء والتجاة والوجاه لغتان، والقصد والنحو كله بمعنى وإن اختلفت الألفاظ. قال الشاعر حقاق بن بديه :

ألا من مبلغ عمرا رسولا

وما تغنى الرسالة شطر عمرو

وقال ساعده بن جويه :

أقول لأم زنباع أقيمى

صدور الخيل شطر بني تميم

وقال لقيط الإيادي :

وقد أظلكم من شطر ثغركم

هول له ظلم تغشاكم قطعا

وقال الهذلي :

إن العشير تهادى فى مجامرها

فشطرها نظر العينين مسجور

فإذا وجد العوتبي ألفاظاً غامضة شرح معناها لتتضح دلالة الشاهد على المعنى الذى أورده له. ولذلك شرح ألفاظ بيت الهذلي فقال: «ويروى مسحور» فبالحاء «الغائب»، وبالجيم «المنقطع». يريد تلقاءها نظر العين، ونحوها جهتها. «والعشير»: ناقة صعبة لم تركب. قال المفضل: العشير ناقة. «مجامرها»: فخالطها. وشطرها: نحوها. ومسجور: ضعيف. «والشطر أيضا النصف، وشطر كل شيء نصفه، وقولهم رجل شاطر: معناه فى كلامهم الخبيث، أو المباعد من الخير، أخذ من قولهم: نوى شطر أي بعيد»(١).

ثم يعود إلى الموضوع الأصلى فيربط به الكلام السابق، حيث يقول: «وقال أبوعبيدة الشاطر معناه في كلامهم الذى شطر نحو الشيء وأراده، من قول الله «**فول وجهك شطر المسجد الحرام**» معناه نحو المسجد الحرام. وشطر فلان على أهله، أى تركهم مخالفا أو مرغما، ويقال شطر فلان شطورا، وعطورة، وشطارة، وهو الذى أعيا أهله، ومن يود به خبثا»(٢).

---

(١) العوتبي ، الضياء ج٥ ص٥، ٦.
(٢) الضياء ج٥ ص٦.

عاد العوتبي فجعل قوله تعالى فـول وجهك شطر المسجد الحرام شاهدا على معنى كلمة «شطر» فى كلام العرب، وكانت فى أول كلامه مستشهداً إليه.

وأسلوب العـوتبي يعتمد على الحوار والتـواصل بينـه وبين القارىء فكثيرا مـــا يخاطب القارىء، ويدعو له، أو يدعـو لنفسه، وهو فى حواره مع القارىء يعتمد على الجدل وفرض الفروض والـرد عليها، يقول مثلا: فإن قـال قائل كذا.. قلنا لـه كذا، وإن قيل كذا.. قلت كذا.

دقته في عناوين أبوابه، فهى تأتى فى الغائب مجرورة بحرف الجر (فى)، فتأتى هكذا: «في العلم»، «في الكلمة»، «في آداب العلماء»، «في إخراج الزكاة»، «في العقل»، «في التوحيد»، «في القياس»، «في الـدين». وحرف الجر هنا أفـاد معنى التبعيض، وذلك فى المعانى العـامة التى يشعر المؤلف أنها أكبر من أن يحيط علمه وتأليفه بها.

أما عنـدما يتصل الأمر بـالأحكام الشرعية من حـديث عن الحلال والحرام فإن عناوين أبـوابه وفصـوله تأتى قـاطعة محددة خـاليـة من حرف الجر، ومثـال ذلك: باب وجـوب التكليف. وبابا مـا يجوز من الصفات حقيقة ومجازا. وباب مـالا يجوز من الصفات. وباب مالا يسع جهلـه، وباب ما يسع جهلـه. وباب مـا يجب للمسلم على المسلم. وفصل الواجب على العبد عنـد أول أحوال التكليف. وبـاب ما ينقض الصـلاة، وباب مـالا ينقض الصلاة. وباب الاثم والـوزر، وباب الهدى والضـلال. وباب الجزية وأحكـامها، وبـاب ما يحرم من النكاح.. إلى غير ذلك.

ولغتـه في الأبواب الأخيرة قـويـة صارمـة، فأسلـوبه تقـريري، وجملـه إخباريـة، والفـواصل فيها قصيرة، ويستخـدم دائما عبارات: يجوز للمسلم كـذا..، ولايجوز له كـذا، ويحرم عليه كذا.. وغير ذلك من العبارات التـى تحمل الحل والحرمة، أو الجواز وعدمه، أو الإباحة، أو الكراهة.

وكثيرا مـــا **يبدأ كـلامه في الأبواب والفصول المتعلقـة بالأحكام الشرعية بـآية أو حديث** يجعله أساساً ينطلق منه، **فباب «مايعتق به العبد** من قول مولاه أو فعله ومالا يعتق به» يبدأ بقوله: «روي عن النبى ﷺ أنه قـال: «ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: النكاح، والطلاق، والرجعة»(١).

وباب «مايحرم من النكاح بـالرضاع وما لايحرم منه» يبدأ بقـوله: بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»(٢).

---

(١) سنن الترمزى، مصطفى الحلبى ص١١٨٤، وسنن أبى داود ص٢١٩٤، وسنن ابن ماجة، عيسى الحلبى ٢٠٣٩.
(٢) مسند أحمد بن حنبل ١ : ٣٣٩، والسنن الكبرى للبيهقى ٤٥٢:٧، ٤٥٣، المعجم الكبير للطبرانى ٩٤:٢.

وباب «في العتق وأحكامه» يبدأ بقوله: قال الله تبارك وتعالى: ﴿فلا اقتحم العقبة، وما أدراك ما العقبة، فك رقبة، أو إطعام في يوم ذي مسغبة﴾(١).

وباب «في المكاتب» يبدأ بقوله: قال الله عز وجل: ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا﴾(٢).

يستخدم كثيرا الألفاظ التى تحمل معنى التوضيح والهداية وأدواتها، فسمى كتابه في الفقه «الضياء»، وعلل ذلك في مقدمته قائلا: «لأستصبح بضيائه مهتديا، وأصبح بما فيه مقتديا»(٣).

دارت ألفاظه في عبارته حول معنى الضياء ومصدره أو نتيجته، فنجد الأفعال «أستصبح» و«أصبح» والأسماء مثل «ضيائه» و«مهتديا» و«مقتديا». ونلمح الربط الرقيق بين الاستصباح والضياء والاهتداء.

وسمى معجمه اللغوي «الإبانة»، وسمى كتابه فى الأنساب «موضح الأنساب»، معللا ذلك بقوله: «ليكون أوضح دلالة وأسهل طلبة لقارئه والناظر فيه»(٤).

ويتضح من كتاب «الضياء» علم صاحبه بالنحو والصرف اللذين وظفهما العوتبي في الفقة، يقول في باب الاستعاذة: «أعوذ بالله فعل مضارع، علامة مضارعته الهزة في أوله، والمضارع: هو يعوذ، فعل مضارع من «عاذ»، وهو فعل معتل لأن عين الفعل واو، والأصل فيه «أعوذ» فاستثقلوا الضمة على الواو، فنقلت إلى الغير، فصارت «أعوذ» فالهمزة في أعوذ إخبار عن النفس: أعوذ أنا، واليا للغائب: يعوذ، والتاء للمؤنثة الغائبة: تعوذ هى. وللمخاطب: تعوذ أنت يارجل، ويعوذ فعل مضارع يصلح لزمانين، للحال والاستقبال، والماضى لايصلح إلا لزمان منقض قرب أو بعد، فإذا أدخلت على الفعل المضارع سينا أو سوف أزالتاه إلى الاستقبال لاغيره، وعوذا مصدر، وإن شئت قلت معاذا أو عياذا أو عوذة وعياذاً، كل ذلك صواب. وعائذ اسم الفاعل، واسم المفعول معوذ به، والأمر عذ للمذكر وعوذى للمؤنث، وعوذا للاثنين، وعوذوا للرجال، وعذن للنسوة. وعن الفراء قال: العرب تقول: نعوذ بالله من وطأة الذليل، أي أعوذ بالله من أن يطأنى الذليل. ويقول معاذ الله من ذلك، ومعاذة الله من ذلك، وعائذاً بالله من ذلك، وعن الكسائي أن الحسن قرأ: وقل رب عائذا بك من همزات الشياطين، وعائذا بك أن يحضرون. معناه: أعوذ بالله من ذلك. وعن الفراء أن العرب تضرب مثلا أول من قال ذلك سليك بن السليكة: اللهم إنى أعوذ بك من الخيبة، فأما الهيبة فلا هيبة، فالخيبة الفقر، ومعنى هيبة أى أن لا أهاب

---

(١) البلد / ١١، ١٢، ١٣.
(٢) النور / ٣٣.
(٣) الضياء ، ج١ ص١٦.
(٤) موضح الأنساب ص٧.

أحداً. وقال الخليل: ومعنى معاذ الله أعوذ بالله. وفى الحديث قال: قال النبى ﷺ لرجل يقول: أعوذ بالله «لقد عذت معاذا»، ومنه الإعاذة. والتعوذ والتعويذ والعوذة هى المعاذة التى يعوذ بها الإنسان من فرح أو جنون. والعرب تستعيذ بالله من شىء تكرهه وتنكره(١). واستدل العوتبي على ذلك بالعديد من آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ وأشعار والشعراء.

وقد يتساءل متسائل، وما قيمة كل هذه التصريفات والاشتقاقات للفعل «عاذ» فى هذا المجال؟

والحقيقة أنها كبيرة الأهمية لمعرفة ألفاظ الاستعاذة واشتقاقاتها ومعانيها، لأن الاستعاذة قول، والمتعوذ محتاج لمعرفة كل ذلك حتى يستخدم أيها شاء أو استطاع، ويفهمهما على وجهها الصحيح إذا سمعها، فلا ينكرها.

ويلاحظ من النص السابق علم العوتبي بالنحو وبالإعلال والإبدال والإسناد إلى الضمائر والاشتقاقات اللغوية، ويلاحظ علمه كذلك **بالقراءات**، إضافة إلى **علوم اللغة وأقوال العلماء** في ذلك.

وتطرق بعد ذلك إلى **نكتة لغوية**، وهى أن «الاستعاذة فى العدد خمس كلمات على عدد اسم المستعاذ منه وهو الشيطان، لأنه شين وياء وطاء وألف ونون، فهذه خمسة»(٢). استدل على أن اسم الشيطان خمسة أحرف وليس سبعة بأن الألف واللام تثبتها العرب وتحذفها، وأورد الأدلة على ذك من أقوالهم شعرا ونثرا.

وشرح العوتبي معنى كلمة (أعوذ) وكلمة (شيطان)، ثم تطرق لما تعوذ منه النبى ﷺ. روى أنس بن مالك أن النبى ﷺ كان يتعوذ من البخل والجبن والهرم وفتنة الرجال وعذاب القبر والكسل.

وعاد إلى الإعلال والإبدال فشرح سبب فتح نون حرف الجر «من» فى «من الشيطان» لتلاشى التقاء الساكنين، وقارن بينهما وبين «عن الشيطان» من حيث سبب فتح النون في الأولى وكسرها في الثانية، بأنهم اختاروا الفتح فى «من» لانكسار الميم، واختاروا الكسر فى «عن» لانفتاح العين(٣).

ويظهر إلمامه بعلوم البلاغة، وذلك في مناقشته للمسائل وتحليل الآراء فيها، ومن ذلك رده على من الكلام على ظاهره فى قوله تعالى ﴿**فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم**﴾(٤). فرأى أن الاستعاذة تكون بعد القراءة، معتمداً على أن الفاء للتعقيب.

---

(١) الضياء ج٥ ص١٦٠.
(٢) الضياء ج٥ ص١٦١.
(٣) انظر : الضياء ج٥ ص١٦٣.
(٤) النحل/٩٨.

رد العوتبي على ذلك فقال: «والجواب عن ذلك أن تقدير الأمر إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله، وتكون الفاء معناها تباين الحال»[1] واستدل على ذلك بأقوال البلاغيين فى هذا الشأن، وبآيات أخرى من القرآن الكريم وقع فيها هذا التقدير كقوله تعالى: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾[2].

وفى الآية إيجاز وهو مايسمى في البلاغة العربية «إيجاز الحذف» وهو ما يكون بحذف كلمة أو جملة أو أكثر، من غير أن يختل المعنى، مع وجود قرينة تعين المحذوف[3]. وقد دل العقل على الحذف وتعيين المحذوف، وفى ذلك اكتفاء بالمسبب (القراءة) عن السبب (الإدارة)، وفى ذلك إشارة إلى أن الاستعاذة تكون قبل القراءة مباشرة وليس لمجرد الإرادة.

مزج العوتبي المعرفة اللغوية بالمعرفة الفقهية، فكانت له وقفات فيما يتصل بعلوم اللغة بما يخدم الموضوع الذي يتناوله، فكان لغويا فى فقهه، فهو في كتابه الفقهى «الضياء» لم ينس أنه لغوى، فعرف المعانى ومقابلها واستقصى معانيها، وفسر كل لفظة غريبة وردت في كتابه، يقول العوتبي في ذلك: «وقد فسرت جميع ما ذكر فى هذا الكتاب من لفظ غريب ومعنى عجيب ليكون مستغنيا بتفسيره عن الرجوع فيه إلى غيره، على أن الغرض المقصود به والغرض الموضوع له هو الفقه»[4].

وقد تساءلت ألا يمكن أن يكون ما أورده من معان لغوية فى هذا الكتاب تكراراً لما هو موجود في معجمه «الإبانة» فعمدت إلى بعض المواد اللغوية التى تناولها فى «الضياء» وراجعتها مع المادة نفسها فى «الإبانة» فوجدت الفرق كبيرا بينهما، إذ لم يأخذ من اللغة إلى الفقه إلا ما يفيده ولم يأخذ من الفقه إلى اللغة إلا بالقدر المناسب، فهو وإن كان لغويا في الفقه، أو فقيها فى علوم اللغة، فإن أحدهما لم يطغ على الآخر في مجاله، فهو يأخذ من كل جانب إلى الآخر بالقدر الذى يخدمه ولايطغى عليه. ويتضح ذلك من الملحق الذى أثبته فى نهاية البحث لمادتين من كتابه «الضياء» ومعجمه «الإبانة».

ويظهر أثر علمه باللغة فى أحكامه الشرعية، وفى معالجته لمختلف المسائل في العقيدة، يقول مثلا: «ولايوصف تعالى بأنه «مؤقن» لأن اليقين هو العلم الذى يستدركه العالم بعد الشك والارتياب، أو بعد أن لم يكن يعلم، فيكون قد أيقن بذلك بعد أن كان فيه شاكا، فلما لم يجز أن يكون الله تعالى يعلم من بعد شك لم يجز أن يقال إنه موقن»[5].

---

(١) ا الضياء ج٥ ص١٥٨.
(٢) المائدة/٦.
(٣) انظر : الإشارات والتنبيهات ج٢ ص١٤٤.
(٤) الضياء ج١ ص١٧.
(٥) الضياء ج٢ ص٣١.

ويقول: «ولايوصف تعالى بأنه «يفهم» الأشياء كما يوصف بأنه يعلمها، لأن الفهم هو العلم بمعنى الكلام الذى يسمعه حتى يكون إذا سمعه لم يخف عليك[1] معناه..، ولايوصف تعالى بأنه «كامل» لأن الكامل منا هو الذى تمت أبعاضه، والناقص هو الذى نقصت أبعاضه عن أبعاض الكامل منا، وكذلك الكامل فى خصاله منا نحو كمال الرجل فى علمه وعقله ورأيه وقوته وفصاحته وسماحته إنما يصير بهذه الخصا كاملا لتكامل خصاله هذه وتمامها، ويكون ناقصا عن حد الكمال بنقصان هذه الحال، فلما كان الله سبحانه وتعالى لايجوز أن يوصف بالأبعاض لم يجز أن يوصف بالكمال فى ذاته ولا بالنقصان، ولما لم يجز أن يشرف بأفعاله لم يجز أن يوصف بالكمال من جهة الأفعال كما يوصف الإنسان بذلك»[2].

وإلى جانب اعتماده على المعنى اللغوي فى نفي هذه الصفات عن الله -سبحانه وتعالى- نجد أنه اعتمد كذلك على العقل، فاستخدم الاستدلال المنطقى فى عدم جواز نسبة هذه الصفات لله تعالى.

ومن ذلك أيضا قوله: «ولايوصف تعالى بأنه «بليغ»، ولكن يوصف كلامه بأنه بليغ، لأن البلاغة إنما هى للقول على الحقيقة لا للقائل..، ولا يوصف تعالى بأنه «نبيل» لأن النبل عند أهل اللغة إنما هو الحسن والجمال مع صيانة النفس وتكامل الخلال المحمودة، فلما كان الله سبحانه وتعالى لايجوز عليه الأحوال، ولم يجز أن يفضل وأن ينبل بأفعاله، ولايتكامل بالخلال كما ينبل النبيل منا، لم يجز أن يوصف بأنه نبيل»[3].

---

(١) هنا التفات لطيف من ضمير الغيبة إلى الخطاب من أجل تنبيه القارىء أن هذه الصفات للبشر فلا يظن أن ضمير الغائب يعود على الله سبحانه وتعالى، وإنما يقصد به الإنسان، والمخاطب منهم.

(٢) الضياء ج٢ ص٣٣، ٣٤.

(٣) المرجع السابق ص٣٦، ٣٨.

١- مـــادة «ق ب ل»

أ) فى كتاب «الضياء» :

القبلة مأخوذة من القبالة، وهى المحاذاة والمقابلة، ويقال منازل فلان قبالة كذا وبحذائه، ويقال أيضا هـو قبل له، إذا كان موازيا له متـوجها إليه ومقابلا له. قـال الشاعر: «إذ لاح سهيل كأنه قبل». واستقبل فلان القبلة، إذا وقف بحـذائها. وكأن القبلة فى كل بقعة سميت بذلك لأنها بحذاء الكعبـة. ويقال الكعبة نفسها قبلـة لأنها قبلة لأهل الأرض، وسميت بذلك لأن من استقبلها فهـو متوجه إلى الله عـز وجل. قال تبـارك وتعالى: ﴿**فلنـولينك قبلـة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام**﴾(١) فسماها قبلة. وقال بعضهم سميت قبلة لأن الله عز وجل يتقبل صلاة من يتوجه إليها، فكأنها فعلة من قبل، يقبل، قبلة وقبولا، كما تقول جلس، يجلس، جلسة، وجلوساً، وقعد قعدة وقعوداً. ومنه قوله تعالى ﴿**فول وجهك شطر المسجد الحرام**» قيل شطره جهته فى كلام العرب. والشطر والجهة والتلقاء والتجاه والوجاه لغتان، والقصد والنحو كله بمعنى وإن اختلفت الألفاظ»(٢).

واستمر العـوتبي بعـد ذلك فى شرح معنى كلمة «شطـر» مستدلا بكـلام العرب خـدمة للموضوع الأصـلى وهو شرح معنى القبلة.

ويعود مرة أخرى إلى مادة «قبل» فيذكر ما وردت فيه من آيات وأحاديث، ولكنه يقتصر على ما كان منها متصلا بمعنى القبلة.

ب) فى معجم الإبانة :

تقول هو من قبل أى ومن أمامه، من دبر أي من خلفه، وفى القرآن ﴿**وقدت قميصه من دبـر**﴾ أى من خلفه، ومن قبل أى من أمامـه ويجمع فى هذا الموضـع على الإقبال والادبار. وسأل رجل الخليل عن قول العـرب كيف أنت لو أقبل قبلك فقـال أراه مرفوعـاً، لأنه اسم وليس بمصدر كـالقصد والنحو وإنما هـو كقولك: كيف أنت لـو استقبل وجهك بما تكره. والقبل الطاقة، قال الله تعالى: ﴿**فلناتينهم بجنود لاقبل لهم بها**﴾ أى لاطاقة لهم بها وقال الكميت:

ومـــرصـــد لك بـــالشحنـــاء ليس لـــه

بـــــالحل منك إذا أوضحتـــــــه قبـل

---

(١) البقرة / ١٤٤.
(٢) الضياء ج٥ ص٥.

وفى موضع آخر هو التلقاء، تقول رأيته قبلا. أى مواجهة، وأصبت هذا من قبله أى من تلقائه، أى من لدنه، وليس من تلقاء الملاقاة، ولكنه فى معنى من عنده، والقبل أن ترى، الهلال أول ما ترى تقول رأيت الهلال قبلا والقبل: اليسير من الأرض يستقبلك تقول رأيت شخصاً بذلك القبل. والقبل أن يتكلم الرجل بالكلام ولم يستعد له فى الكفالة به فهو يقبل قبالة، ويقال من يقبل بكاى من يكفل بك، قال الشاعر :

إن كفي لك رهن بالرضى

فاقبلي يا هند قالت قد وجب

وقوله تعالى ﴿**وحشرنا عليهم كل شيء قبلا**﴾ أى قبيلا قبيلا، وفسر بعضهم عيانا يستقبلونك كذلك. وكل جيل من الناس والجن قبيل، وقوله تعالى ﴿هو وقبيلة﴾ أي من كان من نسله، والقبل رأس كل شيء مثل الجبل والأكمة وكثيب الرمل وتحوه. وقبالة كل شيء ما كان مستقبل شيء فهو قباله وهو مقابله، ومن الجيران مقابل ومدابر. قال الشاعر:

حمتك نفسي ومعي جاراتى

مقابلاتى ومدابراتى

والقابلة الليلة المقبلة، وكذلك اليوم القابل والعام القابل، وهو المقبل ولايقولون منه فعل فعل، والقابلة المرأة التى تقبل الولد عند الولادة، والجميع القوابل، والقبول من الرياح هي لصبا لأنها تستقبل القبلة، وتستقبل الدبور، وهى تهب مستقبلة القبلة من المشرق، وتصير إلى الغرب قال الشاعر:

فان تمنع سدوس درهميها

فإن الريح طيبة قبول

والقبول أن يقبل العفو والعافية، وهو مصدر تقول يقبلها قبولا بفتح القاف. وتقول تقبل الله منك وعنك عملك قبولا، وتقبلا، قال الله تعالى: ﴿**فتقبلها ربها بقبول حسن**﴾ والقبل فى وعين إقبال السواد على المحجر، وقيل إذا أقبل السواد على الأنف فهو أقبل، وإن أقبل على الصدغين فهو أحرز. والفعل أقبل يقبل قبلا، وامرأة قبلا وعين قبلا. وتقول فعل هذا من ذى قبل أى من استيناف، ورجل مقابل فى الكرم والشرف من قبل أخواله وأعمامه، ورجل مقتبل الشباب لم يرفيه أثر من الكبر بعد، قال الشاعر:

ليس بعل كبير لانساب له

لكن أثيلة صافي الوجه مقتبل

قال الأصمعى: كل كبير السن صغير الجرم على واصل ذلك القرار، والعل القراد الضخم والعل من الرجال الذى يزور النسا. ورفع أثيلة على طلب الهاء على معنى لكنه أثيله.

وقبيل القوم القيم بأمرهم للسلطان وغيره، ومصدره القبالة وضمانه القبالة وكل كتاب بين قوم بقبالة أو مقاطعة فهو قبالة قبل عقيب بعد، فإذا أفردوا رفعوا فقالوا قبل كقوله -تعالى- ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾ رفعا بغير تنوين، لأنهما غايتان، فإذا أضفتهما إلى شىء نصبت تقول جاءنا قبل زيد تادم وبعد خارج إذا وقعتا موضع الصفة، فإذا القيت عليهما من صارا من حد الأسما، كقولك من (قبل زيد) (ومن بعد عمرو) فصار من صفة وخفض قبل وبعد لأن (من) حرف خفض، وإنما صار «قبل» منقادا لمن متحولا من الوصفية إلى الإسمية، لأنه يجتمع فيه صفتان وعليه من لاى من فى صدر الكلام فقلت جيتك قبل عبدالله وجاءنى قبل زيد أو كان هذا من قبل ذاك، فإذا لم تضف ولم تستعمل من مع الإضافة فسبيلة الدفع كقوله تعالى: «لله الأمر من قبل ومن بعد» لأنهما غايتان ليس وراءهما شىء. وقبل الأول وبعد الآخر، والآخر ضد الأول والآخر سوى الأول، وتقول جاءنى رجل ورجل آخر، والآخر دون الرجل الأول»[1].

---

(١) معجم الإبانة ، مخطوط وزارة التراث القومى والثقافة ص٤٤٦ - ٤٦٩.

٢- مـادة «ش ن ع»

أ) فى كتاب «الضياء» :

عندما وردت كلمة (شنع) فى كلام العوتبي عن مخالفيه استطرد في شرح معناها ليوضح ما تحمله الكلمة من معنى القبح ليؤكد قبح المخالفة، يقول: «ذكر شىء من شنع مخالفينا والذي جازوا به عن الصواب»

والشنع هو (القبيح)، و(الشنع) و (الشناعة) و (الشنوع) كل ذلك من قبح الشىء الذى يستشنع إذا قبح، يقول شنع الشىء، فهو يشنع إذا قبح، وقال القطامي:

ونحن رعيـــــة وهم رعـــــاة

ولـــــولا رعيهم شنع الشنـــــار

ونسخة (شنع) بضم النون، والشنار هو العار. و (شنع) الخلق وأشنع، وقصة شنعا، أى قبيحة، وأمور شنع، وقال وفى الهام منها مطرة وشنوع، أى قبح واختلاف يتعجب منه، وتقول (رأيت أمراً شنعت به شنعاً) أى استشنعته. وقال مروان بن الحكم:

فـــوض إلى الله الأمـــور فـإنـــه

سيكفيك لايشنـع بـــرأيك شـــانـع

وتقول: (شنعت) على فلان هذا الأمر شنيعاً، وقد استشنع بفلان جهله(١).

وبعد هذا الشرح لمعنى كلمة «شنع» أورد العوتبي مخالفات مخالفيهم ورد عليها وقدم أدلته.

ب) فى معجم «الإبانة» :

شنع فلان على فلان أى أخبر بأمر قبيح شديد عظيم، وتقول شنعت على فلان هذا الأمر تشنيعاً، وقد استشنع بفلان جهله. وكلام العرب أمر أشنع، وخصلة شنعا، إذا كانت شديدة عظمية. قال:

انـــاس إذا مـــا أنكـــر الكلـب أهلهم

حموا جـــارهـم من كل شنعـــا مضلع

---

(١) العوتبي ، الضياء ج٣ ص١٩٣.

معناه إذا لبسوا السلاح وتقنعوا به فأنكر الكلب صاحبه منعوا جارهم من أن ينزل به أمر شديد عظيم. ويقال ضلعنى الأمر إذا غلبنى واشتد على، والشنع والشناعة والشنوع كله مثل قبح مايستشنع إذا قبح، قال القطامى:

ونحن رعيـــــــة وهم رعـــــــاة

ولـــــــولا رعيهم شنع الشنـــــــار

الشنار هو العار، وقصة شنعا أى قبيحة، قال وفى الهام منها نظرة وشنوع أى قبح واختلاف يتعجب منه. وتقول رأيت العام أمرا شنعت به شنعا أي استشنعته(١).

ونلاحظ اتفاقا إلى حد ما بين الكتابين فى المادة الثانية، وذلك لأن المادة لها معنى واحد ووجه واحد فى الاستعمال، أي حقلها الدلالي واحد.

---

(١) العوتبي ، الإبانة ص١٤٩.

المصادر والمراجع

١- مصادر ومراجع عربية :

- ابن الأثير (نصرالله محمد بن عبدالكريم أبوالفتح ضياء الدين)، المثل السائر، تحقيق الدكتور أحمد الحوفي والدكتور بدوى طبانة، نهضة مصر، الطبعة الأولى، الجزء الثالث.
- البطاشى (سيف بن حمود)، إتحاف الأعيان فى تاريخ بعض علماء عُمان، مسقط، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.
- الترمزى (أبوعيسى محمد بن سورة)، سنن الترمزي، تعليق عزت عبيد الدكاس، مطابع الفجر الحديثة، حمص ١٩٦٨م.
- الجاحظ (أبوعثمان عمرو بن بحر)، الحيوان، تحقيق عبدالسلام هارون، طبعة البابلى الحلبى، القاهرة ١٩٤٥م، الجزء الثالث.
- الجرجانى (عبدالقاهر)، ولائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانكى، مصر ١٩٨٤م.
- حماسة (د. محمد)، النحو والدلالة، مطبعة المدينة، مصر ١٩٨٣م.
- الخطيب القزوينى (جلال الدين أبوعبدالله محمب بن عبدالرحمن)، الإيضاح، تحقيق لجنة من علماء الأزهر، مكتبة المتنبى، بغداد، د.ت.
- الرماني (أبوالحسن على بن عيسى)، النكت فى إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن)، تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام، الطبعة الثالثة، دار المعارف، مصر.
- زكريا إبراهيم (دكتور)، مشكلة البنية، مكتبة مصر، القاهرة.
- الزمخشري (محمد بن عمر بن محمد)، أساس البلاغة، دار الشعب، القاهرة ١٩٦٠م.
- السكاكى (أبويعقوب يوسف بن أبي بكر) مفتاح العلوم، المطبعة الأدبية، مصر ١٣١٧هـ
- الشايب (أحمد)، الأسلوب، النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٨٨م.
- شكرى عياد (دكتور)، اتجاهات البحث الأسلوبي، دار العلوم للطباعة والنشر، السعودية ١٩٨٥م.

- شفيع السيد (دكتور)، الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٨٦م.
- صلاح فضل (دكتور)، نظرية فى النقد الأدبى، الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية ١٩٨٠م.
- العسكري (أبوهلال الحسن بن عبدالله)، الصناعتين، تحقيق محمد على البجاوى والدكتور محمد أبوالفضل ابراهيم، مطبعة البابلى الحلبى، القاهرة.
- العوتبي (سلمة بن مسلم)، الضياء، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط ١٩٩١م الأجزاء ١-١١.
- محمد عبدالمطلب (دكتور) البلاغة والأسلوبية، الهيئة المصرية ١٩٨٤.
- مخلوف (د. عبدالرؤوف)، من قضايا اللغة والنقد والبلاغة، دار الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى ١٩٨١م.
- المسدى (عبدالسلام)، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، طرابلس.
- ابن منظور (محمد بن مكرم)، لسان العرب، دار صادر، بيروت ١٩٥٦م.
- هلال (د. محمد غنيمى)، النقد الأدبى الحديث، القاهرة ١٩٨٢م.

٢- مراجع مترجمة :

- برند شبلنر، علم اللغة والدراسات الأدبية، ترجمة د. محمود جاد الرب، الدار الفنية، القاهرة ١٩٨٧م.

٣- مراجع أجنبية :

- G. Haugh, Style and Stylistics, Landan, 1969.
- S. Ulmann, Meaning a Style, Oxford, 1973.

٤- مخطوطات :

- العوتبي (سلمة بن مسلم)، الإبانة، مخطوط بوزارة التراث القومى والثقافة، مسقط.

٥- دوريات :

- درويش (د. أحمد)، الأسلوب والأسلوبية (مدخل فى المصطلح وحقول البحث ومناهجه)، مجلة فصول، المجلد الخامس سنة ١٩٨٤م.
- شكرى عياد (دكتور)، الأسلوب في التراث القديم، مجلة فصول، أكتوبر سنة ١٩٨٠م.